أدونيس

اهدأْ، هَاملت
تَنَشّقْ جُنونَ أوفيليا





أدونيس

اهدأْ، هَامْلت
تَنشّقْ جُنونَ أوفيليا



فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

الطبعة الورقية الأولى، 2008
الطبعة الإلكترونية، 2011

ISBN-978-614-425-051-8

دار الساقي

بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.:
5342/113 . الرمز البريدي: 6114 - 2033
هاتف: 866442 1 961، فاكس: 866443 1 961

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com

تاريخُ الماء

منذ وضعتُ قدميَّ
على ضفَّة الخليج،
لم تعد يدُه تعرفُ أن تكتبَ
إلاَ الأسماءَ التي تَـنْتمي إلى قبيلتي.

*

- شَيءَ ما
يَقتلعُ الأفقَ - النَافذةَ الأخيرةَ
في بيتِ أيّامنا.
لماذا، يا ابنَ حَفديسٍ،
رأيتَه، ولم تَكْترِث؟
-كنتُ أطَارِدُ الجدجدَ
الذي يُخْبئ في حنجرتهِ
غناءَ الأقاليم.

*

هوذا الموجُ
يفكَ أزرارَ البحر بشفتيه،
تحت شَمسٍ تَنسَدِلُ خيوطُها
ستائرَ يُخَرِّمها الهواء.

تخيّلتُ طفولتي
ورحتُ ألهو على الشاطئ،
جِيناً، كطفلٍ يرسمُ وجهَ البحر،
ويَعدُّ أصابعَ الشّمس.
وَجِيناً، كبَحّارٍ شَيخٍ
يَقرأ تاريخاً آخرَ للماء.

*

الشّمس تميلُ إلى الغروب، وها هو المساء:
عُنقُ إنْبيقٍ خيميائيّ
(يَنحدر من العصر العربيّ في صِقلّية،
أو هكذا شُبّه لي)
يتمدّد على لاَزَوَرْدِ البحر.
وثَمّةَ يَدانِ لإنبيقٍ آخر
تَمدّان سَلالمَ
لِلتّنقّلِ بين الكواكب.

*

في اللّيلِ،
خُيِّلَ إليّ أنّني أسمعُ أنيناً
آتياً من جنوب الخليج
يُشبه أنينَ شواطئِنا.
لماذا تخيّلتُ، آنذاك،

أنّ شعري ينتظر حالِماً
أن يغمسَ خبزَ الشّواطئ
في زَيْتِ النّجوم؟

*

أسْطُرلاَبٌ
يهبطُ وحيداً
على سُلّم اللّيل،
يُربِّتُ على كتفيّ
وَيُطَمْئِنني.

*

خَذَلَتْنيَ الحروفُ الصّوائِتُ
في خِصامي مع شقيقاتِهنّ - الحروفِ السّواكن،
وكنتُ أبني بيتاً لأحزاني
من الأنقاضِ المرئيّة وغير المرئية -
تلك التي تركها أجدادُنا وراءهم
في محيط هذا الخليج.
وكنتُ أشهدُ، للمرّة الأولى،
دخاناً يتصاعَدُ من أمواجه.
وكدتُ أن أقرأ بِعينيّ الإثنتين،
قواعدَ في الخليج لِصَرْف البحر وَنَحْوِهِ،
لا يَعْرِفُها صَرْفُ اللّغةِ وَنَحْوُها،

تمدّ نفسَها إليّ
لكي تُعطيَني نَرْدَها
رِسالةً أنقلُها إلى مَن أشاء.

*

قلتُ لهواء الخليج:
لا تَـكتبْني في دفترِكَ،
يكفي أن تأخذَني بين ذراعيك.
وأنتِ، يا مَوْجَة الحنينِ،
ألم تَـتْـعبي من السَّيْر في صَحرائي،
حافيةَ القَدَمَيْن؟
(فيلاّ إيجيه، باليرمو، 26 تموز/يوليو 1998)

شبّاك البيت الذي وُلدتُ فيه

لقمرُ، هذه اللّيلة،

يُشعل شموسَهُ بين قبور الأطفال،

فيما تتقدّم ريحٌ غامضةٌ

على كَتفي وردةٍ تكاد أن تذبل.

*

هل يحقّ لي

أن أمرَّ تحت شُبّاكِ البيت

الذي وُلدت فيه؟

ولِمَن أوجّه هذا السّؤال، يا هذه الرّيح؟

*

تلك اللّيلة، في نيويورك،

كنتُ، من أيّة نافذةٍ نظرت،

ومن أيّة زاوية،

أرَى إلى القدس،

كأنني أراها تحت سماءٍ

لا وطنَ لها

غير كرسيّ الله.

*

كلُّ شيءٍ يريد أن يظهرَ في صورةٍ مختلفة.
هل ترون مثلي
كيف يتحوّل البحرُ الأحمر
إلى هَرَمٍ تنامُ فيه اللّغة؟
وكيف يَنْقلب النّاس:
لا يموتون (أو لا يعيشون)
مِن أجل راحة الأرض،
بل من أجل راحة اللّغة؟
تلك اللّيلة،
أحسستُ أنّ شمسيَ العربيّة
عَزجاءُ خَزساء مَجدوعة الأنف.

*

ولم تتوقّف زيزانُ الحضارة
عن عَزْفها القاتل في أذنيّ.
وكانت الحداثة خاتماً
يَتَلألأ في الأرض الواسعة
التي تَتحوّل إلى إصْبَعٍ إلكترونيّةٍ
في يَد نيويورك.

*

ورأيتُ غرباناً تَزْرقُ على خُوَذِ القادة
من أيّة سُلالةٍ انحدروا،
فيما يَتوسّدُ كلٌّ منهم

ثَديَ مرضعةٍ سماويّةٍ،

وفيما تغسل الصّواريخ أقدامَها

بماء الملائكة.

أنتَ، يا مَن تُدير وجهكَ نحوَ الشّرق،

هل تظنّ حَقّاً

أنّ الشّمسَ ستطلعُ غداً؟

*

أوه،

يكاد علمي أن يقتلني!

*

لكن، كيف حَدثَ أن صار الوقتُ

يشنقُ المكانَ

متى شاءَ، وكيفما شاء؟

*

ربّما، لم يعد هذا العالَمُ

في حاجةٍ إلى البشر.

كيف تريدين مِنّي، إذاً، أيَـتها الأرض،

أن أفهمَ دورانَكِ حول الشّمس؟

*

وَانْطمِسي، أيّتها الحواسّ،

لا أقول ذلك انتصاراً لكِ،

أقوله لكي أعزّيَ الأبجديَـة.

وَأُخبِرُكِ:

وُعِدْتُ بالجحيم،

كما يُؤكّد أعداؤكِ المؤمنون.

لهذا،

يَخْطرُ لي أن ألمسَ الجثةَ

لكن بغير أصابعي،

وأتحدّثَ إليها

لكن بصوتٍ غير صوتي -

في اللّيل،

قُرْبَ جدارٍ عالٍ،

فيما يعبرُ أمامي حصانٌ رومانيّ

واضِعاً على رأسِهِ

خُوذةَ فارسٍ أحبَّه.

*

وكانتِ القدسُ قد جَدلَتْ شعرَها

أمْراساً لِجَرِّ التّاريخ، وربّما لِتَسلُّقِ الكواكب،

فيما كان المارقون يُهلّلون:

للجيوش آلِهـةٌ

ليست للحقولِ

وليست للينابيع.

وكنتُ رأيت القدس،

وسُجِزتُ بحجَرٍ
يَتحوّل إلى جبينٍ للكون،
بجدارٍ
يَصيرُ سُلّماً للفضاءات.
لكن، هوذا أرَى الأرضَ كمثل الِحسَاء،
وأرَى ملائكةً يسجنون الهواءَ،
ويحاربون العشب.

*

أوه -
ليس في حُبّ السّماء للأرضِ،
غير القبور!

*

في هجرتي،
غَيّرتُ كثيراً من الطّرُقِ
إلى ما ظننتُ أنّه المُستقبل.
غَيّرت عَصايَ
والوردةَ التي وضعَها الحبُّ، يوماً،
تحت وسادتي.
غيّرتُ لهجاتٍ كثيرةً في لغَة النّبض -
تلك التي تتحدّث بها هذه الآلة الصّامتة
التي سمّيناها القلب.
غَيّرتُ سمائيَ نفسَها، وخطواتيَ نفسَها،

غير أنّني
كنت أرَى غالباً
أنّ الهاويةَ أمامي،
وأنّها هي التي تنتظرني.

*

حَقّاً،
يكادُ علمي أن يقتلني!
وخيرٌ لي
أن أنتميَ إلى كلّ ما لا أراه.

*

هديرٌ يهاجم الغيوم،
والأسلاكُ الشائكة تغوص أكثرَ فأكثرَ
في كبد الأرض، -
هل ينبغي عليّ، إذاً،
أنْ أمتطيَ مدفعاً لكي أصلَ إلى نفسي؟
لم أكن أصدّق
أنّ السَماءَ كُوِّرت لكي تغتصبَ الأرض،
ولم أعد أعرف
مِن أيّ غصنٍ تجيء هذه الثمرة،
أو من أيّ فَمٍ
ينزل في أذنيّ صوتُ السّماء؟

*

وماذا أقولُ عن خوذةٍ

تؤكّد أنّها وردةٌ

وعن بندقـيَـةٍ

تبشّر أنّها شجرةٌ من أشجار الجنّة؟

وكيف أشرح لماء التّاريخ

هذا الإنسانَ - هذا الطّينَ الإلهيَّ

الذي يَحدُّه الرّملُ والتوهُّم؟

وما دمتَ أيّها الأفق، لا تعرفُ

أن تجيبَ عن أسئلتي

فسوف أعطيكَ اسماً آخر.

وأعرفُ أنّ هذا أمرٌ

لا يهمّ غير المرأة -

تلك التي تدخل الآنَ في سريري.

*

هكذا،

أنتظرُ أن ينشقّ القمرُ

بعد هنيهةٍ

في جوف امرأةٍ عاشقة.

*

هكذا،

أعرفُ أنّنا،

وفقاً لِلتّقاويم،

وَتِبْعاً لِلحظِّ في الصَّخو،

أو في المطر،

ووفقاً لِلرِّيح،

سنخرج لملاقاةِ المستقبل

في ثيابٍ سَأزجئ وَضفَها

وإن كنتُ أَستَشرِف لَوْنَها.

*

وماذا، إذاً؟

تُراني لم أولَدْ بعد؟

تُراها حياتيَ

ليست إلاّ تمرّناً على الولادة؟

(نيويورك، أواخر أيار/مايو 2001)

عَصْرٌ يَتمدّد على الإسفَلْت

- 1 -

لم تكن الشّمس هِيَ هِيَ
لم يكن الأفق هُو هُوَ.
وكان الموجُ يخلعُ هوَياته
ويدخلُ في تحوّلٍ آخر -

باء

بيتٌ شاغِرٌ، وليس فيه غير الغُرفِ المليئة. هل يُغلّقُ الأبواب؟ بؤسٌ، بلاء. هل يَفتحها؟ بارودٌ، برزخ...

ياء

يوسفُ ليلكَ نَهارُكَ بين يديْ امرأة. هكذا تَنبَّأ ياقوت السّماء.

راء

رَتِلٌ رَجّةٌ رغبٌ... يخافُ أن يموتَ حَرفُ الرّاء مِن الرَّجم قبل أن يبلغَ سِنّ الرُّشد.

واو

وَطنٌ وِصايةٌ وَجعٌ وليمةٌ ورقَةٌ وَيلٌ وَغدٌ وَعيدٌ

هل يرسمُ حدوداً بين هذه الحروف؟ لا مكانَ لأيّ حدّ.
والشّمسُ ليست واحدةً، والهواء ليس حرّاً.

تـاء

تبرّكاً بالقدس الرّياض بغداد القاهرة دمشق، لن يمزّقَ ورقةَ التّوت.

ضُمّهُ إلى وصاياكَ، أيّـها العَصرُ الأميّ. حَقّاً، يكتبُ ولا يعرف كيف يقرأ نفسه.

*

يكتب يواصل الكتابة إيغالاً في صحراء اللّغة ربّما ينقلب سديمُ الحروف إلى إقليم أخضر يكتب دون توقّفٍ أماماً يَساراً دون تردّدٍ دون خشيةٍ واضِعاً على الغبار أحلامه وأضْغاثَها حيث يمكن الإصغاءُ إلى الحجر نفسه يتململ ويتنهّد

ما هذا الذي يُمَوْسِقُ الحركة يبقّع بأنفاسهِ حكمة الهواء لا يقدر الكلام أن يتوقّف عن الشّهيق الزّفير الصّعود الهبوط لا يقدر القلم إلا أن يكونَ زوجاً طيّعاً لِلّغة تطلع الكلمات من أخمصِ القدمين من ملتقى الفخذين من الخاصرة السرّة التّرقوة العنقِ يُقسم كأنّه يكتب جُرحاً يتبدّد في جُرحِ حزج تابت ساحة النجمة المعرض البرج شارع بليسّ المصيطبة موفنبيك يكتب يواصل الكتابة يريد أن يموتَ كتابةً

*

وقولي، بيروت، هل أنتِ حَقّاً في حاجة إلى كلامٍ يكون كالماء يُستخدم في الأطعمة كلّها من أجل الصّناعة والبراعة من أجل الظّهور دائماً في وشاحٍ تأبى السّماء إلاّ أن تُسمّيه بِاسْمِها؟

*

إذاً،

يلزم للمعنى وقتٌ لكي يقدر صوتُ الشاعر أن ينسكب في آذان النّاس تلزم الشاعرَ كتابَات باطنة وظاهرة لكي يقدر أن يستسلمَ للحبر ويتمدّد على الورق

*

هل عليه، إذاً،
أن يبتكرَ كلماتٍ بالأشكالِ
بدلاً من أن يبتكرَ أشكالاً بالكلمات؟
هل عليه أن ينشرَ المعنى منديلاً
أو طائرةً من الورق؟

*

مع ذلك، ها هما يحاولان - الشاعر وبيروت،
أن يَـعْـبُـرا المحيطات
بدءاً من نَـهْـرٍ
لا يزال يتردّد في تغيير اسمِهِ:
نَـهْـرِ الموت.

*

كلاّ،

لا تتهدّمي يا قُصورَ المخيّلة، أيّاً كان الواقع.

وأنتَ، زيوس،

لن تقدرَ أنتَ نفسك

أن تكسرَ قوسَ الحبّ.

- 2 -

وَضَعَ الغروبُ ثيابه على الدَّرج

وضعت اللّهفةُ فَرْوَها على سُرّة المَقْهى.

الأفق سَريرٌ

وكلّ عمودٍ يضطربُ في ماء المخيّلة.

*

تقطّعْ يا شريطَ الصُّور بين اللّيل والموج،

لكي تعرفَ العينُ كيف تَسهر

لكي تعرف الوسادةُ

كيف تنخطف بألق المسامّ،

وكيف تحضن اللّيل.

لكي يعرف الجسدُ كيف يحنو على الجسد

وكيف يَصرخ:

إن كان هناك ملجأ أخيرٌ

فهو الجسد.

لم تكن الشّمس هِي هيَ
لم يكن الأفق هُوَ هوَ -
مايا.
كان الموجُ يخلع هويّاتهِ
ويدخلُ في تحوّلٍ آخر -
مايا.
رأى إلى كُتبٍ لم تَصْدُق
تَـتَـبَخَّر في أنفاس الآتين الذّاهبين
بين يَديْ الكورنيش،
حاجزاً آخرَ يُـزَنِّـر الشّاطئ.

*

رأى إلى عَتبةِ الغروب
تُقلّب دفاترَ النّهار،
فيما كان يسمعُ وَقْـعَ خطواتٍ تُقلّد الأحصنةَ،
وأخرى تتعلّم تواضعَ الغبار.
كان يَسْتَشِفّ أحلاماً - كواكبَ تتبعثـرُ بين الأقدام،
وأخرى، كمثل مظلاّتٍ تتمزّق فوق الرؤوس.
وفي العَمارات التي تَنطح النّظَر
وتكادُ أن توحّدَ بين الفضاء ونفاياتِها،
كان الوقتُ يَزْدَرِدُ أبناءَهُ
كأنّهم بَـقْـلٌ لخِراف السّماء
أو عجينٌ لِدَواجنِ الذّرّة.

*

هشام -

تكاد كتفاه أن تتمازَجَا بكتفي الشّاطئ.

الطّاهر -

يكادُ أن يحملَ قرطاجةً في يـدٍ وشملانَ في يـد.

فهميّة - (تحبّ أن تغيّرَ اسمَها)

كيف لا يختلط وجهُ الحبّ بوجه التّاريخ؟

عبّاس - انظروا إليه هذه اللّحظة،

يُمسِكُ بالجراح ويُحوّلها إلى وسائد

جودت - هوذا يهزّ جِذْعَ نجمةٍ

تكادُ أن تتساقـطَ عليه

غَسّان - أليستِ الصّداقـةِ كمثل طفولـةٍ تكبَرُ

لكنها لا تشيخ؟

*

إسكَري، أيّتها الأمواجُ، املأْ كأسَكَ أيّها الأفق.

لا شرَر إلاّ ذلك الطالع من ماء الحبّ،

لا يقينَ غيرُ التموّج.

- 4 -

يَنحني

كأنّه يحمل جنوب لبنان من أكبَرِ صخرةٍ إلى أكثر أغشابـهِ

نُحولاً،

يَـنْحني

مُـتَّـكِئاً على قبره المُقبل.

يُحادِثُ نخلةً لم تُثمر - هل تُثمر؟

وَيُـوشوش قوائمَ العَرَبة التي تَـكْـتَـنِـزُ خُـبْـزَه.

- ماذا يبيعُ هذا الفقيرُ الشَّيخ؟

- كعكاً أسمرَ مُسَمْسَماً.

- إضافةً إلى الصَّعتر.

- صعتر الجبل؟

- صعتر الجبل.

*

ماسح أحذية.

- «أعْطِهِ»، قالت

أخذَ ما أُعْطِيَ، ومضى.

في مُقتَبلِ العمر، ويبدو كأنّه تَخطّى الخمسين.

*

طفلةٌ - وردةٌ تكاد أن تذبلَ

وراءَ حجابٍ يَـتَـسَدِلُ

شجرةً من الدَمع.

*

رجلٌ مُدوَّر:

فُقَاعَةٌ من الزَّبد.

*

- من أين لِشارعِ يُحبّ شحوبَ الملائكة
أن يبتكرَ شموسَ اللذّة؟

*

واسألوا تلك الزّاوية:
بِأيَـةِ نبوءةٍ بَـنَـيْـتِ هذه الفَراديس؟

*

حَقاً،
للجسدِ نكهةُ البحر، ولِلرّغبة أجسادٌ كثيرة:
ماذا تَفعلُ أيّها العاشِق؟

*

- «أغطِيَ التّاجُ لتاجرِ أغطِيَ القَبرُ للشاعر الولاءُ يُرَجّعُ العَطاء سِياجُ العَمَلِ والقولِ طائفٌ والطّوافُ مثعَةُ المالِ المالُ إيمانٌ أبكم أصَمُّ أعمى ازرعِ الشّقاقَ وَاكمُنْ في شِقٍّ في السّماء حَصىً وقَشٌ في الكلماتِ أيدٍ تقطعُ الألسنة في الحرّية كَسَلُ أحشاءٍ وأعصاب في الشّوارع أجسادٌ - تلالُ أرَقٍ وأظافِر الجحيم نفسُها بَرْدٌ أزرق عَلّمنا صبركَ - فولاذَ الأبدّية وَسوِش رئاتِنا يا هَواءَ الأساطير كُنْ مَعنا أيُّها الغُبارُ - الطّلْعُ وَما أنقاكِ أيّـتها الغيومُ الرّماديّة التي تُمطِرُ العَبَثَ
العَبَثُ بَعْثُ المادّةِ بَعْثُ اللّغة.

*

مايا الوحش - الخروف ألف نون سين ألف نون وما هذه البلدان التي لا تُرَبّي إلاّ الوهم وما هؤلاء النّاس - «كلّهم يبيعون الزّهورَ، لا لِأنّهم يُحبّونَها بل لأنّهم يعشقون القبورَ ودفْنَ الموتى» - بَلَى «اليأسُ حُرٌّ والرّجاءُ عبدٌ» مايا

وأهلاً بالصّعاليك».

*

- يكفي أنْ يَهذِي كمن جُنَّ.

و«ليس الطريقَ وليس الحقَّ».

*

إنّه جسَدُ العَصرِ يتمدّد على الإسفلت.

ورأينا عيوناً لا ترى ورأينا كنائسَ ومساجِدَ تَتـنقَّلُ على ظهور بَشَرٍ يزعمون أنَّهم يَحرسون التّاريخ.

وما أكثرَ الكمائِن التي تُنْصَبُ لِلحبْر.

لكن، ما أفصحَ البراكين

وما أجملَ شَهوةَ الانفجار.

- 5 -

مَقْهى حسّان - هِيَ وهو،

هَبطنا دَرَجَ المَقْهى

فيما نَصعد سلّماً عالياً مِن الهَمّ.

مَقْهى - كوخٌ يَترنَح على شَفير الزَبَد.
طاولاتٌ مدوَرة بلونٍ بنّي
كراسٍ زَرقاء تُحزِّزها خدوش كأنّها آثار جراحٍ لا تَشفى
طوقٌ من الزُّرقة يخطّ حدودَ المَقْهى طوقٌ مرقوشٌ ببياض شَعْرٍ شائخ
والسَّقف صفائحُ توتياءٍ ينخفض كأنّه سِربٌ من سلاحِفَ تَهُمّ أن تضعَ بيوضَها.
مِن السَّقف تتدلّى ستائر فقيرةٌ
كأنّما الفَقرُ يحفظُ حرارةَ المقهى -
فقرٌ غنيٌّ
كَصُوفيٍّ يتسلّق عمودَ سمعانَ
أو يتهيّأُ
لكي يعرجَ نحو كوكبٍ غامض.
فَقْرٌ متقشِّفٌ وصالِحٌ
لِأن يكونَ
شامَةً على خَدّ البحر.

*

كيف يرفع الرّيفُ بيتَـه بين ذِراعي البَحْر
كيف تتحوّل القريةُ إلى كُرةٍ في زَبَـدِ التّقنية تَتناسَلُ
في زبَدٍ لا يَتناهَى كما لو أنّه يَتماهَى
بتنهّد البحر

*

كيف يُصبح سِياجُ بيتِ يَجرفُه هَديرُ الهجرة
يداً تنبسطُ على صفحةِ ماءٍ مالحٍ يسيلُ
عذوبةً في جَوْف الحاجَة
كيف يُلامس ريفيٌّ بخطواته الأولى شاطئَ المدينة
كيف تغسل شمسُ القرية وَجْهَها بملح الشاطئ وكيف
ينزل الجبل إلى البحر وفي يده عُكّاز الأمل -
ذلك هو مَقْهى حسّان.

*

كلٌّ في المقهى ينفثُ دخانَ تَبْغهِ، مُصْغِياً إلى شهواته
إلى الجراح التي تختبئ في أعماقه
وكيف يحدث أنّ السّفَرَ نحو الخبز يبدو كأنّه سَفَرٌ في التّيه؟
وكيف يحدث أن تنكسرَ ساقُ النّهار في طريقه لِمُلاقاةِ صديقهِ اللّيل؟
زَمَنٌ لا تَتّسع له السّماء
وَما أضيقَ حدودَهُ على القَلب.
ويا لهذا المكان -
يُسّمونه كوكب الزَّهر
وما أوْهَنَ الزُّهورَ التي فيه:
أهِيَ فِـتْـنَـةُ السّراب؟
أهِيَ بَهجةُ اللّغة؟

*

كلاَّ،

لن يكونَ واحداً من تلاميذكَ، أيّها الزّمن،

ولن يُديرَ خَدَّهُ الأيسر.

*

لماذا بَدت له الجريدةُ التي يقرؤها جارهُ الشابّ كأنّها كُرَةٌ تتدحرجُ على مُنْحَدَرِ الكلام؟

لماذا، في اللَّحظة ذاتِها،

رأى إلى الموج كيف يقلّد أسِرّةَ الشّهوة؟

*

اعْجُني طِينَكِ

دَحرجيهِ كرةً كُرةً يا خنفساء التّاريخ.

هَيِّئْ حصادكَ

احملْهُ قَشَّةً قَشَّةً يا نَمْلَ المعنى.

- 6 -

مَوْجٌ آخَرُ داخلَ المَوْج - هِيَ،

وثمَةَ رمادٌ يتناثَرُ على بساط الزَّبد.

اقبضي على الزُّرقة يا أهدابَه

انْسجيها أُفُقاً آخرَ لتاريخٍ آخر.

*

البَحر، هذه اللّحظة، جسَدٌ

البحر، هذه اللّحظة، ظلمةٌ لا تَـلِـدُ إلاّ النّور

البحر، هذه اللَحظة، أبَـدُ الترّحل

نسغ الزّمن

رحيق المكان

البحر، هذه اللّحظة، داءٌ وتِزياق

البحر، هذه اللّحظة، قَلَقُ المعنى

وَنشوة المادّة

البحر، هذه اللّحظة، فراغٌ لا يملؤه حتّى البحر

البحر، هذه اللّحظة، هُوَ وهي -

ثُراها، بيروتُ،

تتحوّل هذه اللّحظة؟

أهِيَ سفينةٌ لنوحٍ آخر؟

أهِيَ لُجّةٌ لِنواحٍ آخر؟

أهِيَ لؤلؤ نَهارٍ

يَختضِنُ صدفةَ لَيلٍ

والأرجوانُ سُنطورُها الشّاعر؟

أهِيَ التّائهةُ أبداً

ولا دليلَ غيرُ زلزالٍ يتدفَّق في شَرايينها؟

أهِيَ الطّفلةُ

لا تريد أن تظهرَ إلاّ في ثوب امرأة؟

أهِيَ التّاجُ

يَلْبَقُ بجميع الرّؤوس؟

أهِيَ الخطواتُ

تخلطُ الذُّروةَ بالهاوية والدّليلَ بالتّيه؟

أهِيَ الوَسوَسةُ
تُغوي السّماءَ نفسَها
لكي لا تنامَ إلاّ على وسادةِ الأرض؟
أهِيَ النّارُ والماءُ في كأسٍ واحدة؟
أهِيَ البَراءةُ والخطيئةُ في سريرٍ واحد؟
أهِيَ الشَّبَـكَـةُ
لا تَصيدُ إلاّ نفسَها؟

*

خُذْ بيديها أيّها الموج.

*

- 7 -

قَمَرٌ -
خَرج لِتوِّهِ من هِلاَليّتهِ
يقف على عتبةِ المقهى
يهبط كأنّه يريد أن يَنضَمَّ إلى زوّاده.
يتنفّس الدّرجُ تحت خطواته، مُرتطِماً بصندوقٍ
لِرَمْي النّفايات، قربَ نبتةٍ صناعيّةٍ
تتدلّى فوقها مِكنسةٌ من الرّيش.
لماذا يبدو هذا الكوكبُ
كأنّه وجهُ مَجذورٍ عاش حياتَه كلَّها في المَنفى؟

*

أنْ تُغامرَ هو أن تكونَ دائماً هلالاً.

*

هل يَـقْـترفُ ذنباً إن قال:
لا أجِدُ وطناً أكثرَ نعمةً من الرّيح؟

*

يمكن الهبوطُ، عِـبْـرَ المَقهى،
إلى جحيم المستقبل.

*

قَبل المغيبِ في أثنائهِ بعده
يمتزجُ، في المقهى، الموجُ باللّيل
ليلٌ كما وصفَـهُ امرؤ القيس
لكن، ليتَ اللّيلَ هنا لا يَـنْجلي أبداً
ليلُ عودةٍ ليلُ سفرٍ في العودة ليلُ حلُمٍ
يتعلّم الواقع على يديه كيف يمزج الكثرةَ بالواحد
والزّمن بالرّمز، وكيف يوحّد بين الرّغبة والحقيقة
ليلٌ تَـنْطرحُ بين ذراعيه مستسلماً لِأهوائكَ
وأهوائه ليلُ السرّ وسريره ليلُ الموت
والحبِ الذي يغلب الموت

*

نعم، قولوا لهذا اللّيل ألاّ يَـنْجليَ أبداً،

ومَا ألطفَ، ما أحَنَّ
أن تظلَّ متأخِراً دائماً
عن موعدكَ مع النّوم.

*

- 8 -

لا يتوقّف الموجُ عن الكتابة
وليس الحِبرُ الذي يرشح منه حِبرَ النّهار وحده، أو اللّيل
وحده واللّحظات كمثل أوراقٍ تَلتَصِقُ بكتابِ
الصّخور
لا يتوقّف البحرُ عن الغناء
الصّوت ارتجالُ رفيفُ نوارسَ تَترصّد صَيدَها الخفيَّ بُحّةٌ في حُنجرة الشاطئ
الصّوت موسيقى أوْتارٍ تنقطعُ وَتتّصلُ في حوارٍ مع المدّ والجَزْر صوتٌ يحفظُ الرّيحَ عن ظَهْر قلبٍ من الألِف إلى الياء،
وليس في المقهى ما يَحُولُ دونَ أن تتخَّيلَ
أنّ الدّقائق آلاتٌ موسيقيّة
وأنّ للموج أصابعَ تعزف عليها.

*

لا يتوقّف الماءُ عن عناقِ الحصَى عن اللّعب معَ الرّمل في أخوّةٍ عاليةٍ بين الصّخر والموج لا يتوقّف عن

الدُّخول في ثقوب المادّة -

أهو جنسٌ يهدر طالعاً من البحر؟

جنسٌ يَضْطَرِمُ

في ما يُشبه الثنيّةَ والدّائرةَ الإبْطَ

والخاصِرةَ الثَّدْيَ والحَلَمة الفَجْوةَ

والشَّقَ مايا - هِيَ

وفي ما يشبه القوسَ

يَبْتَرِدُ

وَيَهْدَأ.

*

لا يتوقّف الموجُ عن الكتابة - هِيَ

هوذا تتصاعَدُ من المَقْهَى

تنهّداتٌ كأنّها تجيءُ من طفولة العَضر.

*

شَرْقٌ آخَرُ

يَضْطربُ في ماء العَضر.

*

نخرج من المَقْهى

وفي كلٍّ منا تتوقّـد نارُ بروميثيوس.

*

لاَ يتوقَّفُ البحرُ عن ابتكار جسده -

يرَى إلى النّوارس ترمي شباكها

ويَتذكّر مكانَ ولادته:

سريرَ شَمْسٍ

تَتعكّزُ على رؤوس أشجارٍ

تكاد أن تيبس.

يتذكّر الذَهاب الإيابَ الضّياع

بين بَحْرٍ يبتكرُ جسده،

وَجَبلٍ تجرّه الرّيح.

*

كانت طرقُه عاليةً

وسوف تكونينَ أكثر علوّاً

أيَّـتها الطَرقُ التي لم يَعرفها بعد.

*

هل عليه إذاً،

أن يُمضيَ حياتَـه كلَّها في ولادةٍ دائمة؟

*

خُذْ بيديه أيّها الموج.

(بيروت - باريس، 1 - 20 كانون الثاني 2004)

اهدأ ، هاملت تَنشَّقْ رائحةَ أوفيليا

ا . الإقامة في الحلم

- 1 -

حُفاةٌ بلا قُبّعاتٍ،
ثيابُهم بلون الرّصاص، وعيونهم حُفر.
شكسبير، ماذا يفعل حولك هؤلاء الرّجال؟

- 2 -

فضاءٌ: حظيرةُ ماشية.
تتمدّد المدينةُ في أنابيب إسمنتـيّـة.
عرَبَـةٌ تنزل من الغيم: خذها، هاملت، وقم
بنزهةٍ على النهر. في أفق يَتـَّكِئُ على آهاتك. حول أبراجٍ
تبسط أيديها كي تضعها في يد السّماء.
أشباحٌ تتحرّك في الشوارع كأنها تجيء من
كواكب - صخورٍ تسكنها آلهة لا أسماء لها.

- 3 -

أحلم -
كأنّي على شاطئ متوسّطيّ. نورسٌ يهوي إلى اللّجّ.
وراء سمكة؟ يبدو أنّه غاصَ عميقاً ولم يعد. أكيدٌ،

بعد قليل، سيطفو. وأكون قد غيَرت مكاني: لا أحبَ أن أراه ميّتاً.

- 4 -

أحلمُ -

صَدفةٌ تحمل شريطاً من الطَّحالب.

صدفَةٌ ثانية تشبه أوفيليا. أهوَ صوت هاملت،

هذا الذي أسمعه؟

- «لا أحد.

أنا حلَقَةٌ في أذن كوكب مُخَنَّث».

حلزونٌ يرفع قرنيه شراعين. زَبدٌ يمدّ ويجزُر بين القرنين.

«التّائه هو، وحده، الذي يمكن أن يعرف نفسه»،

قال الصَوتُ الذي أصْغيت إليه.

«التّيه لؤلؤتي»، يقول الشاعر.

«وليس في حوض الشَعر ماءٌ يكفي زهرةً

واحدة»، قالت صَدَفَةٌ تشبه أوفيليا.

- 5 -

أحلمُ -

في مرفإٍ بين المتوسّط والشمال، تعوم جدائلُ مَوْجٍ خلاسيَ، تحت سماءٍ خلاسّيةٍ، في غيمةٍ تَسبحُ في قُبّعةٍ بآلاف الثقوب. دائماً، تحتها،

يرتطم عِطْرُ الدِّفلى بقدمي الرّيح.

ترفرف النّوارسُ كأنّها تتذكّر صداقاتنا. وكانت الغيومُ
تفترش أعناقها.
جدارٌ إسمنتيَ يحجب البحر. وراءَه أفقٌ يختنق.
حجرٌ أسود، لكن من النّار، نارِ الفلكِ، لا من الأرض.
«ينقرض الرّأسُ وتبقى الذكرى»، قال الحجر.
شكسبير،
هل مررت هنا، حقّاً؟

II . الإقامة في بيت الواقع

- 1 -

غرفةٌ ضيّقة في فندقٍ واسع.
أسمع في الغرفة الملاصقة بُحّةَ جارتي. هل تسمع
هي
شهيق وسادتي؟
ترتطم وسادتي بمنشار الذّكرى، وتشتعل في سريري
مدخنةُ أفكارٍ جامحة. كأنّني لست إلاّ نغمةً في
جرَسِ هذا الفضاء الذي تقرعه يدُ الرّيح.

- 2 -

هنا في لندن رأيتُ الرّوحَ: امرأةً نصفُها ماءٌ، ونصفُها
نارٌ. ضع يدكَ، هاملت، بين النّصفين، وتذكّر المرأة
التي أحبّتكَ. أليست لها رائحةُ التّاريخ؟
وأسألك، هاملت:

هل للماء جذرٌ،

أم هو نفسه جَذْرُ النّار؟

أعشق مثلَ هذه الأسئلة التي تتغيّر هي نفسها، قبل أن تحظى بالأجوبة.

- 3 -

مَقْهى -

شيخٌ كأنّه رأسُ أيّلٍ مريض.

شيخٌ آخرُ ينام في كتابه المقدّس.

تدور الأسئلة حائرةً:

ما هذه القوّة

التي لا ترى العالم،

لكنّها تقبضُ عليه؟

- 4 -

ضع قهوتكَ جانباً، واشربْ شيئاً آخر.

«بتوفيقٍ من السّماء،

ندير حرباً وقائيّة.

نحملُ ماء الحياة

من ضفاف الهدسون والتّاميز

لكي تتدفق في دجلة والفرات،

وفي بقيّة أنهار العالم»

*

- حَزْبٌ على الماء والشَجر،

على جلجامش وهوميروس،

على الطَيور ووجوه الأطفال.

- الهواء ينتحب

محمولاً على قصبةٍ اسمها الأرض.

- زمنٌ ترتجله الشَظايا.

- براكينٌ فضائيّة.

- كأنَ هذه الأمّ - السَماء

لا تتغذّى، كما يقول الغزاةُ،

إلاّ بجثثِ أبنائها.

- هل علينا كذلك أن نصدّق

أنّ ثمَةَ صواريخَ نبويَـةً،

وأنّ الحضارةَ لا تُولد إلاّ من نفايات الذَّرة؟

- تهمّ أحزانُـنا

أن تُنشبَ أظفارَها

في أجساد النّجوم.

- أرضٌ تسبح في الحرائق،

والبشر حطبٌ أخضر.

- نبحث عن الحياة

ولا دليلَ غيرُ الغبار الذَّريّ.

- ألقينا على القبور آخرَ ورودنا.

إلى أين نمضي؟

الطَريقُ نفسها لم تعد تُصدّق خطواتنا.

في شوارع لندن بقايا لاهوتٍ ينقش الحجر كمن يكتب
وصاياه بالماء، أو كمن يحفر آباراً في الجوّ.
شارعٌ -
فَزَعٌ،
ليس الدّفءُ رسالته الوحيدة.
شارعٌ -
قمرٌ
يسبح فوقه، يكاد أن يتحوّل إلى رغيف.
لندن - كانون الثّاني 2006. الشّمس مذيعةٌ تلفزيونيّةٌ،
والنّجوم جرائد. لا أخبارَ من جهة العرب إلاّ الفقر والقَتل.
هنا كذلك، يبدأ النّاس نهارهم بتقاسُم السَّماء.
الأرض مجرّد ملعقة.

- 6 -

كان الواقع في لندن يتسلّق على كتفيّ كمثل قردٍ أحمر. ولم أكن أريد أن أعرف لماذا. أخذتني نشوة تتصاعَد بُخاراً من المادّة إيّاها التي كان شكسبير يطمئنُّ إليها، في حِلِّهِ وفي ترحاله.

قلت أذهب إلى أكسفورد.

في جامعة أكسفورد، خطرَ لي أن أهبط، ثانيةً، في جحيم سان - جون كوليج، برفقة كمال أبو ديب وأرى

سماءَها كيف تتجزّأ في غرفٍ فارغةٍ إلاّ من قصائدَ يجلس عليها غبار التّاريخ.

ورأيتُ أن أتناول الكأسَ التي شربَ منها هاملت، وأن يكون الحبَبُ الذي يَحِفُّ بها، مزيجاً من التّيهِ والحُبّ.

ولم يكن هناكَ ما أشربه إلاّ رُضابٌ تذوّقته مرّةً، في الحلم، بين شفتي امرأةٍ تشبه أوفيليا.

عدتُ إلى لندن، مساءً، في سيّارة كبيرة لم تترك عابراً على الطّريق إلاّ أدخلته إلى جوفها، فاتحةً له ذراعيها. كانت تهدرُ كما لو أنّها تريد أن تقوم بِقفزةٍ عالية لكي تلتطم بجدران الأفق.

كنت أجلس قبالةَ امرأةٍ لم أجرؤ أن أتفوّه أمامَها بكلمةٍ واحدة. ولم تأخذني الحماسة أو الرّغبة لكي أفتح كتاباً أطردُ به الضّجيج الذي كانت تُحدثه جدرانٌ تتراكَضُ في قَبْو الوقت.

ذكّرتني هذه المرأة بجدّتي التي أدّت فريضة الحجّ، ولم تكن تؤمن إلاّ بالجنّة.

- 7 -

تعشّينا في مطعمٍ إيطاليّ بدا كأنّه لا يمتُّ إلى المتوسّط بأية صلة:

غسّان شربل، عبد الوهّاب بدرخان، عبد الله اسكندر، مصطفى الزّين،

وأنا.

تحدّثنا عن طيورٍ عربيّةٍ لم تعد ترفرف إلاّ بين الرّصاص والسّكاكين. عن عربٍ لم يعودوا موجودين إلاّ في الكتب.

ولم يكن شكسبير بعيداً.

كان قريباً إلينا، مأخوذاً بالدّم الذي يتدفّق من مَسرحه. ثمّ جاء وجلس إلى مائدةٍ مجاورة، وأخذ يتحدّث عن أبطاله، وعن فَنّه حيث لا تزال تتمسرح شؤون العالم.

- أوفيليا،

«ثوبكِ عائمٌ في ماء العرب»، يقول شكسبير. «والعرَبُ

عائمون في ماء التّاميز والهدسون»،

يقولُ خبّازٌ

تحاصره الشِّباكُ

ولا سلاح له إلاّ حِبرهُ.

- شكسبير،

كم سنةً، سنبقى أحياءً على هذه الخشبة؟

- لم نعد نقدر حتى على الكلام.

- الكلام هو كذلك في يد الله. ساعدهم أيّها القدير.

ولم أقدر أن أوقظَ أوفيليا من بين أهدابي التي كانت طافيةً معها على الماء. وكنا معاً نحتضنُ حتى الماء الذي غرقت فيه.

كان في ثيابها نجومٌ وبحيراتٌ وأودية.

*

- لكن أوفيليا ليست ديانا،
وديانا ليست الملكة.

III . هايد بارك

- 1 -

- اقرأوا النّفطَ كأنّه سورةُ العَضر
- صورةُ العَضر
- زيت الحَجر نزيفُ احتقانٍ في كَبِدِ الأرض مِزَاجُ أرضٍ حُبْلى دمٌ أسود أخضر جوهر الحيوان والنّباتِ في تخمّرٍ يجهل الهواء نبيذُ جُثَثٍ من كلّ نَوع
أهْلاً بثورة الصّناعة
وسُحقاً لقُصورِها الرئويّ
- هَذيانٌ يسبح في ماء العَقل عبوديّة أصبحت عبادةً
النّـفْـطُ مُلَوِّثٌ كونيٌّ
في الحركة في الحرارة في الضّوء
في الرأس والقَلب
- تُوِّجَ مَلِكاً على كلّ شيء هو الكريهُ منظراً ولمساً ورائحة
أدبُ الإسفلت
-استكشاف استدلال تنقيب استخراج حفظ صيانة مستودعات أنابيب صهاريج براميل تصفية تكرير تقطير مازوت زيت الغاز كيروسين توزيع بيع مَحطّات

مضخّات قساطل صنابير صفائح أحواض خزّانات محرّكات أسطوانات

إلى التنفّس

تَرحّموا على روائح العالم الزراعيّ البائد

- ثقافة الإسفلت، -

تصوير، سينما: فرناند ليجيه، ادوار هوبر

رواية: دوس باسوس، فوكنر

مسرح: بريشت، بيسكاتور -

النّفط بطل ملحميّ!

- أين الشّعر؟

- النّفط:الجيولوجيا، الكيمياء، الفيزياء، البيولوجيا، علم الحيوان، الطبّ، الصّيدلة، علم البيئة الصناعيّة، الاقتصاد السياسيّ، علم الماليّة، الجغرافيا السياسية

النّفط النّفط: سومر وبابل

سفينة نوح

الطّوفان

أسفالتو

- أشكَالُ وَغي وحشّ لم يعرفها أفلاطون ولا تلامذته الأول لم يعرفها هيراقليطس نفسه فصولٌ في الحاسّة في الدّلالة المعدنيّة

-بيولوجيا المادّة علم المعنى الصّناعيّ للعالم جسَدٌ آخر اسمه المحرّك الآليّ الظّلامُ والنّورُ في ثوبٍ واحد خاتَمُ الالتباس طُوبى طُوبَى

النّجومُ

هو مَنْ غرسَها في حقول السَّماء

قولوا لهذا الفَلَكِ

أن ينفلتَ من بين أصابعكم

صراخكم نفسه مَليءٌ بالتّجاعيد

- وصلَ القطار

لم ينزل المسافرون

تحوّلوا إلى مقاعد

ما أقولُه ليس مجازاً

إذهب أيّها العالم إلى الفَحم

IV . شَتات

- 1 -

سار شكسبير إلى جانبي في شوارع لندن.

«كيف خرج من قبره»؟ سألني شخصٌ لم يصدّق. لا بُدَ أنّه عاشرنا نحن العرب. ربّما قبل أن نُولد.

هل أنت بداية الطّريق أمْ نهايتها؟ هل أنت نهاية البدء، أم بدء النّهاية؟

كُنُسٌ، كنائسُ، مآذنُ تعلو في صخب المادة، في فناجين القهوة والشّاي، وفي القُبّعاتِ والمناديل.

- غَالبِ القَدر!

لا تتردّد. انصبْ في كلّ كلمةٍ تقولها فخّاً للسّماء. واغضبْ كأنّك شكسبير، من أولئك الطّغاة الذين يحسبون الرؤوسَ أنهاراً يقطفونها لكي يزيّنوا بيوتهم.

- 2 -

يهمَ شكسبير أن يُمسك بحبل الرّغبة، على غير عادته،
فيما كان يراقب السّحر الطّالعَ من خواصر النّساء.
امرأة تتدحرجُ نَزداً
يبدو كأنّه أفلتَ لتوِّه من يَدِ القدر.

- 3 -

لندن -
ثديان ضخمان:
واحِدٌ يرضعه المال،
وآخَرُ في يد اللّه.

- 4 -

كانت السّماء تغطي وجهَها بمنديل الغيم،
عندما ذهبتُ هذا المساء، إلى مكانٍ في لندن، لكي أستمتعَ برؤية الأزمنة تتنقّل مُرهقةً في عربات التّاريخ.
إنّه اللّيل يسنّ شفرةَ حواسّه.
جلسنا - هو، وهي، وأنا في مَقْهى، وأخذنا نتحدّث عن العرب. فجأةً، انضمّ إلينا شكسبير:
- «أيّها الغرباء الإخوة، أحبّ أن أصغيَ إليكم».
ثم همس في آذاننا:
«النّهارُ، غالباً،
إبنٌ عاقٌ لأمّه الشّمس».

- 5 -

أحلم -

في المرسى المتوسّطي إيّاه، كانت تطلع من أعماق المياه

مراكبُ كأنها آتيةٌ من موجِ أحمر، يجرّها بَحّارون

تجرّهم أفلاكُ المصادفة.

لم يكن يحلم هو الذي يرى أو يقرأ أو يكتب،

بل البحر البحر البحر.

وليس لي معطفٌ لكي ألقيه على جسد هذا المرسى.

- 6 -

غداً،

سيُزبد موجُ المادّة في مضايق الرّوح.

- 7 -

أحلم -

يضيق المكانُ ويتّسع الضّوء.

العربُ يتطايرون في الغبار الأميركيّ،

ولا ظِلّ.

من أين تجيء هذه الشموس التي تلتهم جميع الظّلال؟

IV . أغنية

لندن -

لكِ بين أحشائي، اليومَ، أرجوحة كمثل ساعةٍ كبيرةٍ
يهيمن على عقاربها هاجسُ الرّعب، غير أنّني سأتابع
الرَحيل.

وسوف أتابع الأسئلة.

رغبتي في معرفة أحوالي لا تهدأ.

اهدأ، يا جسدي

اجلس إلى جانب هاملت.

تنشّق جنونَ أوفيليا.

السّريرُ قنديلٌ آخر.

غير أنّ المصابيحَ تؤثر النّوم.

وها هيَ تمسك بي وتأخذني إليه. لكن، ماذا أفعل
بالقضبان التي تختبئ وراءها ذاكرتي؟

«جنيناً، كنت موجاً لا يهدأ»:

هكذا أخبرتني أمّي نفسها.

لا تَهدأ يا موج أحشائي.

«ماذا أفعل بموتايَ - الأحياء»؟ قلت وهي تطوّق
جسدي،

كأنّها لُجّة المَحو.

خُذيني أيّتها اللجّة.

*

حتى في أثناء نومي، تنقلب الأمواجُ حولي، أنا
الجَسَدُ - المَركَب، إلى قراصنةٍ تَتـناهبُ أحشائي.

حقول تتشرّد فيها الآلهةُ وخيولُها
طيورٌ تجلس إلى الموائد
غزلانٌ تنام على عتبات البيوت:
تلك هي عائلةٌ أخرى بين العائلات
التي أنتمي إليها.
لكن، لماذا لم تعد السّماء تُنْجِبُ غير الأقفاص؟
وماذا ستفعل الأرض؟

(لندن، باريس، كانون الثاني/يناير 2006)

لَـوْنٌ ، أيّـها الدّم، هذه اللّوحةَ التي نُسمّيها الأرض

- 1 -

قولوا: أُوحِيَ إليهم.
أختامُ شعوبٍ وألسنة.
حقولُ منتجين ومستهلكين.
يُسيِّسون حتّى الهواء.
هاتوا الأعلامَ، اربطوا رؤوسكم بأقدامكم هنا على حُدودٍ يحرسها خَفَرٌ لا مِنَ الجبالِ لا من السّواحلِ، بل مِن الغيب.
أو قولوا: أوحِـيَ إلينا.

- 2 -

-لم تعد جَدّتي إلاّ سكّيناً.
-لم يعد جَدّي إلاّ ذِبحاً.
-مَا القَبرُ الذي سيأخذكَ السَّفَرُ إليه، أيّها المُتَرَحِّل؟ أزهَقْتَ الطُّرقَ بحَوافرِ بَغلتك. أنزِل أثقَالكَ عنها، وَامْنَحْها الرَّاحة. ولماذا لا تَشتغلُ، وأنتَ جَالِسٌ، بخريطةِ السَّماء؟ لا تزالُ نجومُها تَنتظرُ من يحرثُ ومن يَزْرع. مع أنَّ الحصادَ هنا كذلك لا يُؤخَذُ إلاّ حَزباً. أغطِ هذه البغلةَ لِسَفينةٍ تَمخرُ في الحُنجرة، أوْ لِرأسٍ ليس إلاّ حلبةً لِلّزقص. يكفي أن تُصْغيَ لِمن يَروي كيف تُصَفُّ مَلاعِقُ

الجَثة فوق موائدَ تَتنقلُ على أفخاذ الكواكب، أو كيف يفرشُ النّاس بِأهدابهم دروبَ السّياسة.

تَقْتفي الأرضُ خطواتِ وَرَقٍ يَقْتفي الغيب.

أمرٌ بِحَفرِ خَندقٍ للرؤوسِ التي ضُرِبت اليوم.

بَشَرٌ يعيشون ويفكّرون كأنّهم لا يَعرفون أن يغسلوا وجوهَهم إلاّ بالدّم.

- 3 -

في الطَّريق التي تَصِلُ شَرقَه بِغَربه، هُنَا في طنجةَ، في «قَصْرِ المجاز»، كان يَسيرُ كمن يتسلّق جِذْعَ تاريخٍ يتسلّق القَيْقَلان.[1]

-«نزهة قصيرةٌ على فَرس الموج»، قال صديقُه[2] مشيراً إلى المسافة التي عبرها طارِقٌ، لكي يؤسّس الأندلس.

أخذَ يشعرُ، هو الحاضِرُ الحَيُّ، كأنّه ليس إلاّ ماضِياً. وتَراءى له الوطَنُ كمثل ورَقٍ يتطايَرُ في الجهاتِ كلِّها. وما هذه الأيّامُ التي تُقتَلُ في الصَّوم والنّوم؟ وما هذه الشّوارع التي يَزْدَرِدُها العصر؟

ورأى، بين «قَصْر المجاز» وأشلاء بغدادَ، كيف تتحوّل بلادُ العربِ إلى مُعَسْكَرٍ لِغَزْب الحديد، وإلى مَشفَى تُقطَعُ فيه أطرافُ المستقبل.

فَقرٌ يَلْتهِمُ العَقلَ.

سَرابٌ يُضَلِّل الماء.

البشر أرقامٌ وألفاظ.

أصْغُوا: قائِدٌ يخطبُ كأنَّه ابْتَلَعَ تِنّيناً. لا تُصْغوا. الرَّحيقُ في التّرابِ لا في الكتاب. الوردُ في الحَقْل، لا في الهَيْكَل. وَيكادُ الهواءُ أن يَخْتَنِقَ من دُخَانِ الكَلام.

وَحَفداً لابتكارنا - حَفداً لِلصّفر.

كادَ أن يَنْسَلِخَ من نفسه.

وَخُيِّلَ إليه أنّ قُبلةً عالِقةً في ذلك الفَراغ، بين «طريفةَ» و«قصر المَجاز»، قُبلةً عَجُوزاً، ترفضُ الهُبوطَ على شَفَتَيِ البَحرِ أو اليَابِسة. ورأى على رَصيفِ ما تَبقّى من «قَصر المجاز» قواربَ صَيدٍ تبدو كأنها بقايا مُذَنَّباتٍ ارتَطَمَت، مِن هُنيهةٍ، بالصّخر والمَوْج. حَوْلَها أشباحُ صَيّادين يسألونَها: ما الأبديّة، وما هذا الطّفل الزَّمن؟

رَمْلٌ على الشّاطئ يَتشهّى أقدامَ النّساء، فيما يُعَانِـقُ أجنحةَ النّوارس. مَوجٌ ينافِسُ أعناقَ الغيومِ تحت شَمسٍ تُـؤَرْجِحُها اللّذّةُ في سَرير الفَضاء.

والضّوءُ -

عَقلٌ يَـفْـتَـحُ أحشاءَهُ لماء الغَريزة.

- 4 -

غُدْ ثانيةً إلى الرّأسِ، أيّها الحلم. وأنتِ، أيّتها السّياسة، ألم تَتعَبي من الخَبطِ بين الأشلاء تحت مظلّةِ حاكمٍ يَنامُ حمامَةً ويَستَيقظُ ذِئباً؟ ويكادُ ذلك الشّاعرُ المسافِرُ أن يسألَ طارِقاً: ولماذا نجحتَ لكي تُقْتَل؟ ويكادُ أن يَصرخ باسمه: ألم تَتعَبي، أيّتها العروبة، مِن غَزْلِ مِنديلِكِ بِالدّم، ومن الغِنَاء لِسُلالةِ الهَباء؟

تَـقْـتَـفي الأرضُ خطواتِ ورَقٍ يقتفي الغَيب.
العروش جِساءٌ أحمر.
التّاريخُ تابِلٌ مِن المالِ والمَنيِّ والمُلْك.
كلاّ، لا طريقَ إلاّ كَلاّ.

- 5 -

هُنا من طَنْجةَ التي تضع قَدماً في المتوسّط وَقَدماً في الأطلسيِّ، كما لا يَتَيَسَّرُ إلاّ لِمدينةٍ لم تُخْلق على مثال، يَختَضِنُ الشّاعِرُ العالَمَ الذي تَئِنُّ اللّغة العربيّةُ في أرجائه، ويكادُ أن ينزويَ في غُصن قَيْقلاَنٍ عُصفوراً ضَلَّ طريقَه، أو أنْ ينامَ على وسادةٍ ليست إلاّ حجراً فينيقياً.

وليست فينيقيا التي تَأبَجَدَ فيها الغَرْبُ، أكثرَ من خُرْبةٍ في هذا الشّرق.

انتحبي، أيَـتها الأبجدّيةُ، ما شئتِ. لن يُصغيَ إليكِ إلاّ الحَجَرُ والعذاب. يتوقّع الشّاعرُ انهيارَكَ أيّها العالم. يتوقّع أنْ تَنْقلِبَ أشجارُكَ إلى أجراسٍ من اللّهَب. أن تصيرَ كلُّ حَصاةٍ فيكَ لوحاً مكتوباً بالدّمع.

وَمِن أين يَجيء هذا الأفقُ الذي لا يَعرفُ أن يقرأهُ إلاّ الرّماد؟

إغتَرِضْ هذا الشاعِرَ، عارِضْهُ أيّها الشّارع. إعملْ شيئاً يكذّبُ يديه وعينيه. شَيئاً يُبْطِلُ كلماتِه. تمرّدْ، وانْقُضْهُ. ينتظركَ حَتّى في قُرونِ المخيّلة. يترصّدكَ حَتّى في دَفْترِ الغيم. واحتفاءً بما يُحرّضكَ عليه، سَيحضنُ من أجلكَ التوهّم، ويُصفّق لِلمعجزة.

تَقْتفِـي الأرضُ خطواتِ وَرَقٍ تقتفي الغيب.
لماذا تَستمرُّ في سُباتِكَ، أيّها السيّد العَمل؟
أشباحٌ تَسنُّ أظافرَها وتغرسها في بلاط الشّوارع.
من أين لَكَ هذا الإكليلُ المُدمَّى، يا رأسَ التّاريخ؟

- 6 -

أيّامٌ تُولَدُ في القُرّاصِ والطُّحلب. لها طبولٌ تَكادُ أصواتُها أنْ تَثقُبَ حَتّى أُذُنَ البَحر المَيْت. وكلّ شيءٍ صُنُبورٌ يقطرُ صَدَأً.

أيّامٌ يتنقَّلُ فيها هذا الشّاعرُ على مَهَلٍ كأنّه أخٌ لِلشّجر والحَجَر. غيرَ أنّه يتعلّم حكمةَ الضّوء، فيما يَرى الأزقّةَ والبيوتَ كأنّها قبورٌ لِأنفاسِ البشَر. لكن، كيف يخلقُ لمعناه صورةً لكي يحلَّ في اللّغةِ حلولَ الملح في الخُبز؟ وكيف يُقنع هذا العالم أنّ الوَرَقَ هو، وحده، أبٌ لحقائقه؟

رِيحٌ تنقرُ على الجدران. ريحٌ تبكي في نواقيس الوقت. رِيحٌ يَجسُّ أطرافَها وسُرَّتَها لعلّه يعرف هِلالَ حَيْضِها، ويُبصِر جنينَ الأحشاء.

خذيهِ إليكِ، يا أرضَ الصُور. هل بَقيت في فراشكِ وسادةٌ لرأسٍ لم يعد يعرفُ النّوم؟ هل تغفرين لِجسَدٍ يَجهلُ كلّ عِلْمٍ إلاّ عِلْمَ الخطيئة؟

وكيف يعثر على نفسهِ فيكِ؟
نَفِّخ ليلكَ بليلِ امرأةٍ ذائبةٍ في جحيمها.
هَذِّب جسدَك بفِتنة الحُبّ.

ساعَةٌ تتدلّى على حائطِ المعنى، تُرتِّل عَقرب الخرافات.

لن تَجِدَ مَفرّاً من رؤية الرّمل يتسلّق الفضاء.

- 7 -

- «يُمكنكَ أن تُداعِبَ جَذْرَ الخشخاش»، يقول وَليُّ أمرِكَ أو «أن تنطرحَ على وسادته». آنذاكَ، يدخلُ الصّوّان في صورة الماء، وتلبَسُ البقرةُ صورةَ الفراشة.

- هل تحبّين، أيّتها الطّبيعة، هذا التحوّل؟

عالَمٌ - سفينةٌ تجنح في محيط المعنى.

فَلَكٌ يموتُ، يَجهل كيف يكتبُ وصاياه.

كلُّ شيءٍ مَلْدوغٌ بِعقْرب نهاياته.

حلزونٌ يرفع قَـرنيهِ ويشكُّهما في إسفَنْج الهواء.

ما أطولَ الجهدَ الذي يبذلهُ الإنسانُ لكي يصيرَ إنساناً.

- 8 -

الأفقُ يتجرّع السُّمّ، شاهِداً على الخوف.

في الهواء والماء والعشب، يولد الخَوف. خوفُ السّاكنينَ من بيوتهم التي رَفَعُوها. خوف المسافر من طريقه. خوف الجسدِ من رأسه ومن يديه. لكن، هيهاتِ أن يتَرجّل القمرُ لكي يُقنعَ النّاظرينَ إليهِ بأرواحهم أنّه ترابٌ كأخته الأرض. ولا ماءَ فيه، لا عشب، مع أنّهم يؤكّدون أنّه مَسكونٌ بالملائكة وخِرافِها.

خَوفاً، جاء الحزنُ إليّ، آخِرَ اللّيل. جلسَ إلى جواري كأنّه طفل نجمةٍ ماتت.

إفْتح لي ذراعيكَ، أيّها الطّفل.

كيف تكونُ وطناً هذه الكرةُ التي تتعثّر فوقها خطواتُ الأطفال؟

رأسُ الزّمن ينكسر، ويكاد أن يَـتَفتّت على مائدة الأبدّية.

خوفاً، ترتجفُ اللّغةُ بين يدي المُعجَم.

لَوِّن، أيّها الدّم، هذه اللّوحةَ التي تُسمَى الأرض.

ثِيرانٌ هِي الأمكنة، والسَّماءُ قُـبّعةٌ لِلمُصارعين.

- 9 -

ثَمّةَ حَصادٌ ليست سنابلهُ إلاّ رؤوساً. ثمّة بَشرٌ يجلسون لِلرّاحة على هذه السّنابل. وأسمع من يَصيحُ نائِحاً: أين أفجّر هذه القنبلة؟ مَتى تَجيء الأجنحةُ التي سَتطيرُ بي؟

قضبانُ حديدٍ على أبواب الأفق، والوجوهُ وراءها كُراتٌ مَثقوبة.

لا أعرفُ أن أُحيّيَ هذا العالم. هل عليّ أن أغيّر شفتيّ. هل عَليّ أن أبتكرَ قلباً آخر، وأحملَ رأساً آخر؟ ألن تقولي شَيئاً، أيّـتها العِبَرُ التي تتموّج في نَهر التّاريخ، وتكاد أن تصيرَ طوفاناً؟

كيف تمكن الحياة على أرْضٍ لا يتكلم فيها أحدٌ غير السّماء؟

هل تريدين، أنتِ كذلك أيّـتها العشبةُ أن أدلّكِ على الماء؟

- 10 -

لم أفكّر في أن أتحوّل إلى ذئب، فيما كنت أنظرُ إلى قَمر التّاريخ يتقدّم في غابة اللّيل. فكّرت في القمر نفسه، مُضغياً إلى نشيد سَفَرٍ في صياح ديكٍ يرسمُ قُنزَعَته على جَبلِ الصّوت. وكان الصّوت لهباً في حنجرة المدينة.

انْفَجَرَ دارجُ اللّغة في فصيحها، واشتعلَتْ شَيباً رؤوسُ المعاجم، فيما كان القمرُ يَّستقرّ في فراشهِ، بعد أن تنقّل طويلاً في عَربةٍ من أحلام القَتلى.

يكفي أن تخرجَ الأرضُ من ثُقبٍ في مؤخرة الكلمة.

حسَنٌ أن تكون دالُ المُدنِ هُدهداً ضلَّ طريقه إلى سليمان.

تكاد حِيتانُ التوهّم أن تَبتلعَ هذه المدن.

كلاّ، لا أريد أن أخلق أيَّ التباس. هكذا لا أريد أن أمجّدَ محاسنَ الكولا، أو مزايا البيبسي. أريد أن أعيرَ مِشطي إلى اللّيل لكي يرتّبَ شعرَه، عندما يستيقظُ من نومهِ في مدينة بيروت،

خصوصاً أنّ التّاريخَ أرجأ سُؤالَهُ الذي يريدُ أن يطرحه عليها.

غالباً تسيل الأجوبةُ دماً يبدو كأنّه يتدّفق من عنق الشّمس.

لن آسفَ إن كنت لا أستطيع أن أقلبَ الحيّةَ إلى عصاً أو هذه إلى تلك.

والويلُ من هذه اليد التي تَحتقر الكَبِد.

ولماذا لا يكون الإنسان كالرّيح، يملك الفضاءَ كلّه، ولا مُلْكَ له؟

وكيف أقول: وداعاً،

للأشخاص الذين كنتُهم،

لتلك الأطياف المتعدّدة التي يَتعذّر عليّ أن أُحْصِيَها؟

*

ما أنْحلَ جسمكِ، أيّتها الأرضُ، يا أرضي، ومَا أحَنَّ اصفرارَ وجهكِ الكريم.

يَكادُ جلدي أن يَلْتَصِقَ بِجلدكِ، فيما أرى إلى الزّمنِ العربيّ يدور في مِعْصمكِ، كمثل سوارٍ مكسور.

والعَجبُ أنّ الكواكبَ التي كان شعراؤنا القُدامَى يخاطبونها، وتُصغي إليهم، نَسيتْنا مع أنّ «يدَ اللّه، منذ بدء التكوين، كانت معنا، ولا تزال»، يقولون.

مِن جديدٍ، تقرأ الغيوبُ كَفَّ شاعرٍ تؤكّد أنّ الحيتانَ لا تحيا ولا تسبحُ إلاّ في كُتبٍ سَبَحث هي نفسُها في بحيراتِ الغيب.

*

إلى كُتَلِ الثّلج التي تَـكْـتَـنِـزُ بها آخر الغيوم العربيّة،

إلى الرَّعد والماء، الشَّجر والعشب،

إلى القمر أسيراً بين فخذين، والشّمس طليقةً بين نهدين،

وإلى ما تَبـقَّى من الأشياء التي لا أسماءَ لها،

أرفعُ هذا النُّصبَ،

محفوفاً بآلاتِ السَّفَر وآلائه،

يُمَسْرحه غَسَقُ اللّغة،

وتزكّيه جوقة موسيقى تجيءُ من حناجرَ غامضة،

في تاريخٍ يكتبه صَداُ المعنى.

*

لَوِّن، لَوِّنْ أيّها الدَمُ

هذه اللّوحةَ التي نُسمَيها الأرض.

(باريس، أيار/مايو 2006)

1. نبات جميل بزهر أصفر يُسمى في سورية ولبنان «الوَزّال».

2. هو الشاعر الدكتور أحمد الطريبق أحمد. وتبلغ هذه المسافة البحريّة حوالَى خمسة عشر كيلومتراً.

- 1 -

يكتبُ إليها - قَلّما يكتب رسالةً إلى امرأةٍ عاشقة. لمثل هذه الرسائل أجنحةٌ تمتلئ بالغبار امتلاءَها بالهواء.

*

هل يَشرح لها بَخرَ اللّقالق في فارو[3]، والغيومَ التي تقلّدُ خُطوات الشّاعر؟ يقول: ثَمّةَ عاشقاتٌ كمثلِ اللّقالقِ يَخضُنَّ بيوضهنَّ على ذُرواتِ الأبراج -
قوائمهنَّ صَوارٍ
وكلّ عُنقٍ شراع.

*

هل يسألها: ماذا يحدث للبشر حوله؟
بين يَديْ كلٍّ منهم أكثرُ من سكّين،
على كَتفيْ كلٍّ منهم أكثرُ من كَبْش.
وفي الطّرُقِ دَمٌ
يتحدّث مع الذّاكرة، حيناً
ومع الطّفولة حيناً آخر.

*

هل يقصُّ عليها

كيف جَرّبَ يوماً أن يضعَ السَّماءَ في حنجرته،

وكادَ أن يختنق؟

أو كيفَ يُحبُّ أن يضيّعَ الوقتُ قدميهِ في سَريرها؟

أو كيف ينقلب الماءُ إلى وردةٍ، وتصبح الوردةُ جسداً،

أينما توجّه نرسيس؟

*

شَفتاهُ تَطفحانِ أسئِلةً،

ولماذا لا يترك الرّيحَ تتقاتَلُ مع الغبار؟

لكن،

هل يقال ذلك في رسالةٍ

إلى امرأةٍ عاشقةٍ؟

- 2 -

ماذا يفعل إن كانت المرأةُ العاشقةُ محيطاً، وكانتِ اللّغةُ بيتَ المحيط؟

ماذا يفعل إن كانت كلُّ كلمةٍ في معجم أيامَه، امرأة؟

*

النّورُ غزيّ،

وكلّ غطاءٍ عَماء.

في النّور، في الجنس، يشعر أنّه مولودٌ قبلَ الأبجديّة.

وأنتِ، أيّتها السَّماءُ

لماذا لا يفرحُ لسانُكِ إلاّ بالموت؟

*

هل الشَّفتان ضِفَتان

لنهرٍ غيرِ مرئيّ؟

وماذا، إذاً، لو صار الألِفُ الحرفَ الأخيرَ من الأبجديّة؟

*

ما أشدّ حاجته الآنَ

إلى أن يُرَبِّتَ بيديه

على كتفي الرّيح.

وما هذه الأرض المقدّسة

التي ينتمي إليها؟

حَتّى البحرُ ميّتٌ فيها.

لكن،

هل يقال ذلك في رسالةٍ

إلى امرأةٍ أحَبّها،

أو إلى امرأةٍ يُحبّها؟

- 3 -

نَامَ هذه اللّيلة[4]، كما لو أنّه يَتنشَّقُ رائحتَها. قَرأ أنفاسَهُ وهي تنطبعُ على الوسادة.

هل الفَراغُ غيابٌ، حقّاً؟

هل الغيابُ فراغٌ، حَقّاً؟

*

يظنُّ أنّها تراه الآن، وتلك هي بِدْعَةُ العين الثّالثة. في الغياب ينشقّ المكانُ نِصفين،

والزّمنُ يفرُّ من النّوافذ.

*

ذئبٌ يصرخ في غابة أوجاعه. وكان القمرُ يُسرّح قطعانه.

وفي حديقة النّجوم أجسادٌ يَسيلُ أحدها في الآخر.

بعضها يُنافِسُ الدّم، وبعضها يُنافِسُ الماء. تَنهضُ حواسّ الغبطة، ويَنْفرِط عِقْدُ الشّلالات.

اهرُبي، أيّتها الأجساد من الوحوشِ التي تقدّسُها الكتب،

وأنتَ، أيّها الجميل إيروس، ماذا يوحشكَ الآن؟

*

لكن،

هل يقال ذلك في رسالةٍ

تحبُّ أن تنام

بين نهدي امرأةٍ يُحبّها؟

- 4 -

لاَ تَسأليهِ أن يكتبَ لكِ. قال للشمس أن تمزجَ اسمَكِ بضوئِها، وقال للفضاء أن يكتبَ.

يَشغلُه شيءٌ آخرَ - أن يعلّم النّهارَ كيف يَتعطَّرُ بكِ،
واللّيلَ كيف تكونينَ قميصاً له.
ابتَكرِي عتاباً آخر.
- «أتُريد قهوةً»؟
سألته الجميلةُ النّادلة، ولم يُجبها.
أنتِ الآن محيطٌ وكلّه صوتٌ صارِخٌ: ما أحبَّ الغَرَقَ إلى أعضائي.

- 5 -

إذاً،
مَنْ تلك المرأة - كلّما استيقظت من نومها، لبستِ الفجرَ، وقالت: هذا حَقّي.
إذاَ،
ما ذلك الكتاب الذي يتصاعد من حروفه دخانُ الحروب، وبخارُ البشر؟
وما ذلك الضّوء الذي يحضّ الإنسانَ على البقاء دائماً في الظلّ؟
إذاً،
ما هذا الزّائل الذي يتّخذ من الأبدّية سريراً،
وما هذا الجِلْف الذي يسيرُ محدودباً بين الاسم والمسمَى؟
إذا،
ما هذه العلاقة
الخفيّةُ الجليّةُ،

السّاحِرةُ السّاخرة،

بين الدّمية والألوهة؟

وما هذا الزّرع الذي يُزهر في السّماء، ويذبل على الأرض؟

إذاً،

ما هذا السّفرُ الكريمُ الذي يصيرُ في الجسدِ إثماً؟

وما يكون بلَدٌ

ليس إلاّ حداداً دائماً على نفسه؟

وما هذه الورقة البائسة التي رسمَ عليها الحِبْرُ

انتماءَكَ إليه؟

إذاً،

ما جَزْرُكَ ومَدُّكَ في محيطهِ، وكيف تقول لفوضاكَ:

انتظمي،

ولِلرِّيحِ: اكنُسي غُباري

ولشجرة الغار: التهمتكِ الأكاليل؟

وما يقول لما ينتهي، ولا نهايةَ له؟

لكن، لكن

هل يمكن أن تُطرحَ مثل هذه الأسئلة

في رسالةٍ

إلى امرأةٍ عاشقة؟

- 6 -

ماذا أفعل الآن؟ هل أبقى في غرفتي، في مؤسّسة تشيني في البندقيّة؟ في جزيرة سان - جورج؟ سأخرج

إلى الجزيرة المجاورة، برفقة ساره ومارتا[5].

مقهى زنجيبار، ساحة سانتا - ماريا فورموزا. إلى جوار سان - مارك. في المقهى تعلو أصواتٌ من أنحاء كثيرة بينها أفريقيا.

طائر الحرّية يجلس في زاويةٍ تنسجها عناكبُ الضّرورة. وابتعد أنتَ يا عَقْرَب الشّمس.

بين الكرسيّ والكرسيّ، تتساقَطُ أصواتٌ كأوراق شجرةٍ عَطْشى تتمايل على ضفّة الماء. الماءُ يبسط ذراعيه: عنقٌ بهيئة قصبة. يَدٌ بلون العشب.

ولا تريد هذه الفتاة أن تجلسَ إلاّ على كرسيٍّ تحسبه حصاناً.

إلى جوارنا تعلو جدرانٌ تطرّزها إبَرُ التّاريخ. ويبدو البشرُ الذين سبقونا وعبروا حولها يلتصقون بها، كأنّهم قرميدٌ أحمر.

إن أتيتَ أيّها القمر، وهبطتَ وادياً، فاسألْ عن جسدي وترفّق به. يكاد أن يلامسَ الهاوية. الهاوية حرّةٌ وجَزداء.

*

يُخيّل إليّ أنّ أذُنَيَ تلاحقان ضوءاً ينتحبُ فيما يرتجل طريقه بين شقوق الجدرانِ، عائداً إلى أمّه الشّمس.

*

وما هذا الجندول الذي يتطاول ويترنّح كأنّه رمحٌ بين يدي دون كيشوت؟

بلى، كأنّني أسمعُ وَقْعَ خطوات نابليون.

*

لِلّذة غَسَقٌ هو نفسه الفجر. على الفراش - أمِّنا الأرّض.

فراشٌ رقيقٌ كأنّه جناحُ فراشة. مَدٌّ وجَزْرٌ،

والجسد الموج. حلمتُ، أحلم...

ليس لجراحنا بلسمٌ آخر.

هل أنتَ صدانا، أيّها الصّخب الطّالع من محيط الغبطة، بين كبريت السَّهَر، وفضّة النّوم؟

*

إنها فينيسيا،

جندولٌ في الخاصرة. دولابٌ في القدم. موجٌ في السّاقين. رعدٌ في الصّدر. والرّغبة عشبٌ يتموّج طافياً في ماء الوقت.

رائحةُ فخذين في باب مطعمٍ، والشارعُ سريرٌ أحمر.

العجيزة خَوْخَةٌ، والنّهد رغيف.

تُجّارٌ، متسكّعون، حُرّاسٌ، عُمّالٌ، مهاجرون، نادلون، شَحّاذون، شُرطيّون، سُكارَى -

جيشٌ من المُلصقاتِ على جدران الهواء،

شعب واحدٌ في فندقٍ سياحيٍّ اسمه الهواء الطَّلْق.

هواءٌ طَلْقٌ تحت المظلات،
وتحت بلاط الشّارع هذيانٌ بَرّيّ.

*

القَرخُ يرضع ثَدْيَ الأفق. هَيّا إلى الفراشِ، أيتّها الأرض.
كَلاَّ، ليس في كُتب السّماء شيءٌ خارجَ الحبر.

*

كلٌّ شيءٍ يضطرب في لُجّةِ المصادفات. في بركانِ شَغَفٍ وَافْـتِـتـان
الأجناسَ. الجنسَ. خرابٌ جميلٌ سِرّيٌّ، تقوده الشّهواتُ - ما يَسْقُطُ وما يعلو في هيكلٍ واحد.
وكل جسمٍ عمودٌ من النّور.

*

فينيسيا!
خلّوا سيورَ الحذاء الكونيّ
وأصغوا إلى موسيقى الماء.

*

الجسد قيثار الأرض،
واللّذة سماءٌ أخرى.

*

حَقّاً، للتّاريخ عَقْلٌ يجهله العقل.

*

لكن، لكن
كيف يُقال هذا كلّه
في رسالة إلى امرأةٍ عاشقة؟

- 7 -

لا ينتشي. لا يملّ.
من أين إذاً هذا القَشُّ الذي يتـقَصَّفُ بين أحشائه؟
ولا يريد أن يكون قاضياً.
ولا يريد أن ينخرطَ، هو الآثِم، حَتّى في سِلْك الإثم.
شيءٌ ما يرجُّ الغشاءَ الذي يُغلّف أعصابه. وتكاد أن تُفسِدَ صورتَه، أنتَ، أيها الحِبْرُ الذي يتدفّق من جرح المعنى.
اهدرْ اهدرْ بين أنقاضهِ، يا صَخَبَ اللّغة،
عندهُ ورَقٌ
لكن، ليس عنده إلاّ ما لا يُكْتَب.

*

لكن،
هل يُقال ذلك في رسالةٍ
إلى امرأةٍ يُحبّها؟

- 8 -

يهطل المطرُ في البندقيّة صاعداً من الأرض. والبحر في كلّ مكانٍ بَحرٌ، إلاّ فيها.

ظَنّي أنّ ليلَها مسمارٌ، والنَّهدَ حَجَرٌ، وما نُسمّيه الفضاءَ، ليس إلاّ زاويةً.

بلَى، رأيت النهارَ في البندقيّة يكتب أسئلته ببياضِ زَبَدٍ أسود. وليست هناك أجوبةٌ إلاّ مقرونةً بأنقاض الموتى.

*

يمكن السّائح، سواءٌ كان أنيساً أو موحشاً، أن يتخيّلَ في هذه الأنقاض أنّ القمرَ فَرسٌ،

أنّه يقدر أن يمتطـيَـهُ،

ويدخلَ على المرأة التي يُحبّها،

ساعةَ يشاء.

*

السّائح! لا اسمَ له، وله الأسماء كلّها. يده اليُمنى تُمسك بِقَرْن الحَلوى، أو بزجاجة الكولا، ويده اليُسرى تَحفرُ وَجهَ الكنيسة الإيوانيّة الباذخة: سان - مارك.

يتركُ جسمَه في مكانٍ، ورأسَه في مكانٍ، وثيابَه في مكانٍ. وقلّما يميّز بين الظلّ والشّمس. لا يَرى السّماءَ تنزل إليه إلاّ في شكل قُبّعة. ويطبخ أيّامه كمثل أسماكٍ غير طازجةٍ فوق نار اللّحظة. وليس واضحاً إن كان ذكراً أو أُنثى.

*

إنّها فينيسيا!

كلماتُ التكوين الأولى تتمدّد فوق الماء محلولةَ الشعر.

أزقّةٌ، قنواتٌ، جداول - إصطَبلاتٌ،

والماء نَسيجٌ ليفيٌّ أسود.

لا الشّمس هنا هي الشّمسُ، ولا القمر القمر: دُولابان يَتَدحرجان.

*

ما أشدّ بطشَ هذه المدينة. لا تتوقّف، بِصلواتِها وآلاتها، عن تنكيس رايات المعنى. ولا شيءَ يتحرّك فيها إلاّ المَنِـيُّ والمعدة.

*

عفواً، سان - مارك.

عفواً، تيسيان.

عفواً، تانتوريه.

*

الماءُ في هذه المدينة هو نفسه الموت.

*

لكن،

كيف يمكن أن يُقال هذا كلَه
في رسالةٍ إلى امرأةٍ عاشقة؟

- 9 -

لن أنسجَ للبندقيَة منديلاً للوداع،
وأنتِ، أيَـتها الرسالة،
عن أيّة كلمةٍ تبحثينَ،
لكي تكونَ خاتمةً لكِ؟

*

(2006)

3. كُتِبَ النص في فتراتٍ متقطّعة، في فارو (البرتغال) وبرلين 25 - 31 أيار 2006، وفي باليرمو (صقلية)، وفينيسيا (إيطاليا) 25 - 30 حزيران 2006.

4. 26 حزيران، 2006، فيلّلا إيجيا، باليرمو.

5. Marta Zoppetti, Sarah Grimaldi (27.6.2006)

- 1 -

إنّها الحرب تغرز قَرْنَيها في رأس الوقت،
وها هي الأرض تدورُ - تكاد أن تَسقط.
السّماء كلمةٌ سِرّيّةٌ في جَيب شُرطيّ.

*

إنها الجريمة -
تهبط سُلّم التّاريخ متأبطةً ذراع الفَلك.
لغةٌ تَلْتهِمُ اللحم والعَظْم،
بُؤسٌ يرنُّ في سمع الأرض كأنه جرسٌ بحجم الكون.
تُربّى الكلمات قطعاناً من الذّئاب
تُسمّى الرّصاصة ريشةً، ويُسمّى القَتلُ هيكلاً.
كبريتٌ أحمرُ
ينحدرُ من جبال الملائكة، -
ما أسرعَ خطواتِه في رئةِ التّاريخ.

- 2 -

كتبٌ - أنابيبُ تُصنع من حَديد اللُّغة،
وقتٌ، مُعجَمٌ لِعضَلاتِ الغَيب.
في الفكر كذلكَ،
يَتطايرُ البعوضُ.

ألهذا، إذاً، يُـنـظَـرُ إليّ مِنْ ثُقْبٍ
حفرتـهُ يَدُ الجنّةِ، ويحرسه لسانُ الجحيم؟

- 3 -

قولي، أيّتها الرّيحُ،
كيف نجرفُ ذلكَ الرّمْلَ
الذي يَزْحَفُ مِن عَلٍ،
ويملأ رأسَ التّاريخ؟

- 4 -

حَقّاً،
لا أحدَ يُفلِتُ من غباره:
غيرَ أنّ العَذابَ يُواصِلُ حَفرَ أنْغامِهِ
في جسد الوقت.
غيرَ أنّ للوقت في الطّريق الذي نَسلكهُ،
رأسين، وقَدَماً واحدة.
غيرَ أنّ حياتَنا
تُهَيّئُ أسرّة أيّامها في غُرفِ الموت،
غيرَ أنّني سَأحرّض الورقَ
لكي يَسدّ أذنيهِ،
هَرَباً من ضَجيج الحبْر العربيّ - من أفكارٍ
تُضنعُ في مَعْملِ الرّيحِ
وتُوزّعُ في سُوقِ الغَيم.
غيرَ أنّني سأصرخ:

حَسَنٌ أن تعيشَ، أيّها الشّاعرُ،
في زمَنٍ
يُريد أن يتحوّل إلى مِلْحٍ
يُناطحُ الماء.

- 5 -

«سِلَعٌ من الدّم كثيرةٌ وعَذْراء،
لكن، أين مَن يُسوِّقُ، وأين الأسواق؟»:
هكذا أخْبرَت، هكذا تَساءَلَت جرائدُ يُضدِرُها الضّوءُ،
خفيةً.
وقيل إنّها عَقَّبَث قائلةً:
«لم تعد أعشابُ السّماء تَنمو
إلاَ في جَوفِ الآلة.
وها هو القضاءُ الأبديُّ
يكادُ أن يَمْتَثِلَ لحكم السّاعة».

- 6 -

يبدو كأنّ دواليب الطّبيعةِ، عندنا - في أرضنا العربيّة،
تَـنْـفـرُ من عَرباتِ الخليقة،
وكأنَّ الأصوات في هذه الأرض،
تكاد أن تُصبحَ بخاراً.

- 7 -

آهِ، ما هذا العالم - عالم الحريّة؟

هل سيبقى، حَقاً، يداً مَقطوعةً
تعزف على قيثارٍ أخرس؟

- 8 -

آهِ، مرةً ثانيةً،
مَا هذا العالم الذي لا يُصغي فيه الخروفُ
إلاَ لموسيقى الذِّئب،
ولا تنامُ عيونُ البَنادقِ إلاَ في وجوه الأطفال؟
عالَمٌ - شُعاعٌ
غيرَ أنّه خيطٌ من النّار.
نارٌ
غير أنّها حديدٌ:
متى سَتعرف، أيّها الثّابت، أن تقرأ التّحول؟

- 9 -

«قلبي كتابٌ مفتوحٌ
ولا أجدُ من يقرأ»، تقول
الشّمس.
ولماذا لا يفهمني
إلاَ ذلك الشّيطان الذي يلبس
الظّلام،
ويتنزّه في بَلّور السّماء؟

*

(نيويورك، 30 تشرين الأول/أكتوبر 2000)

تعب

- 1 -

شمس هذا الصباح في باريس (13 أيار 2000) ساطعةٌ حتى أنها تكادُ أن تذكّر بشمس الصحراء.

أنظرُ في فضائها، من نافذة غرفتي في برج غامبيتّا. أكاد أشعرُ أنني لستُ إلاّ خيطاً ناحلاً من أشعّتها التي تُنزِّهها بين الأبراج العالية.

كان كل برج يمدُّ عنقَه عالياً - لكي يُحسِنَ الرؤية إلى الفلَك، إلاّ برج غامبيتّا: كان يمدُّ ذراعيه - لكي يُحسِنَ ترجمةَ أشواقِه إلى الخروج ممّا هُوَ. ولم يكن يتكلّم. كان يَئِنّ صامتاً.

ماذا أقدر أن أفعلَ من أجلهِ، أنا السّاكنُ في أعَاليه؟

- 2 -

أمس، هبّت الرّيحُ قويّةً في أشجار الحديقة الصغيرة التي أُطلّ عليها من نافذة غرفتي. هوذا أرَى إليها تُقَلِّب أغصانَ الشّجر وتتقلّبُ في أحضانِها. وها هي فجأةً تُمسك بجذعِ شجرةٍ، وَخُيّل إليّ أنها تطوّقها بذراعيها، بجسدها كلّه. وها هي تهدأ. تكادُ أن تتحوّلَ إلى نسيمٍ. تكاد أن تنام.

- 3 -

في مقهى «الدوماغو»

تجلس في زاويةٍ كنتُ جلستُ فيها، منذ أربعين سنةً، مع صديقٍ جُنَّ ومات.

تجلس مستغرِقةً في القراءة. كان ما تقرؤه مثيراً، كما يبدو. رأيتُ وجهَها يشعّ، ورأيت فمها يتفتّح كأنّه برعمٌ أحمر. هل ما تقرؤه يُشبه الوردةَ أو الضَّوء؟

ثمّةَ في المسرح الذي ترسمه عيناها وشفتاها وذقنُها وأنفُها وعنقُها، نوعٌ آخر من لعبِ الظلّ والضَّوء: هل يأتي الظلّ منها، والضوء مِمّا تقرأ؟ أم العكس؟

أعرف أنني كنتُ أمامَ مَشهدٍ بدَا ليَ الزمنُ فيه طفولةً ثانية ليست مِنّي وليست غيري.

أمّا هي فكانت تبدو كأنّها تجلسُ في الطّرَفِ الأقصى من هذه الطّفولة.

لكن،

لماذا هذه الزّاوية نفسُها التي جلستُ فيها، مرّةً، مع صديقٍ جُنَّ ومات؟

- 4 -

جاء التّعَبُ،

جاء، هذه المرّة، شجرةً تَنحني غصونُها وتتساقَطُ أوراقُها. (هل كانت هذه الأوراقُ تبحث عن ريحٍ أخرى؟ هل كانت الغصونُ ضَجِرةً من ثِمارها؟)

جاء التّعب، -

قلت لأيّاميَ الماضية: هل أنتِ حَقّاً، ورودٌ قُطِفت؟
وما شأنُ عطرِها الآن؟

لا أكتمُ أنّني أُحِبُّ الأسرارَ، لكن ليس إلى هذه الدرجة.

جاء التّعب،

وظنّي أنّني لن أقدرَ أن أفعلَ شيئاً أكثرَ من الجلوسِ في ظِلّه.

- 5 -

قالت تتذكّره:

صحيحٌ، نذرَ حياته للحبّ

لكن يا لها من حياةٍ -

كانت سلسلةً من الجُسور المَفقودَةِ

فوق أنْهارٍ مُتخيِّلة.

ولقد عاشَ حُبّه صامتاً

ألهذا لم يقدر صمتُه أن يفتحَ في جسدِ حبّه غيرَ الخَفَر؟

بَلَى، جَـزَر بحرُه،

وابتعدَ موجُه عن الشاطئ، ابتعدَ

وامتدّت بينه وبين هذا الشاطئ شُطآنٌ أُخرى، -

أتلك هيَ

لحظةُ المراكبِ العاشقة؟

- 6 -

رمزتُ وأومأت.

عَددت القبورَ التي تَخْتَبئُ بين العضو والعضوِ. بعضُها مُجِيَ، وبعضها لا يزالُ قائماً.

قبورٌ لا تُحصَى لشَهواتٍ لا تُحصى.

قبورٌ بعضها عناكبُ لا انتماءَ لها، وبعضُها طيورٌ تَنتمي إلى أصولٍ لا تبوحُ بها.

وعجبتُ كيف أنّني كنتُ أفهم الدّاخلَ أكْثرَ ممَا أفهم الخارج. كيف كان السّطحُ يغمضُ عليَّ فيما يَتَّضحُ ليَ العمق. وَسَهُلَ عليَّ وصفُ أسرارِها الباطنة، فيما صَعُبَ عليّ وصفُ أشكالِها الظّاهرة.

وكنتُ دائماً أقولُ لجسدي: تعَلَّمْ.

كلّما ابتعدتَ عن أعضائكَ، ازددتَ قُرباً إليها.

(9 تموز/يوليو 2000)

الصَوتُ الكُرَويَ

- 1 -

كلّ يومٍ، أتجوّلُ بين أشجار برلين، أدرسُ أشكالَها،
وأتساءلُ عن أسمائها.
فيما أمشي،
يُخيّل إليَ أحياناً،
أن في كلَ شجرةٍ جمجمةً للزمن -
فمها مفتوحٌ أبداً
للريح والغبار، للمطر والثلج،
وبين سنةٍ وأختها،
يُعشّش فيها طائرٌ مهاجر.

- 2 -

فوقي غيمٌ كثيف، -
دائماً يرمي الغيم نَرْدَهُ،
واثقاً من الحظّ.
- «لا تَنْس،
لا مكانَ لي غيرُ الفراغ والريح»:
وشوشني الغيم.

- 3 -

للمرة الأولى،

أشاهد على الشجرة التي تقابل نافذتي
غراباً يتنهّدُ - وتخرجُ أنفاسُه
غيمةً صغيرةً من الدخان.
قلتُ في نفسي:
لا شكَّ. صوتُ الغُرابِ
كرويٌّ.

- 4 -

عندما أصغي في النهار إلى موسيقى شوبان،
كما أفعلُ هذه اللّحظة،
يُخيّل إليّ أنّني أصغي إلى حفيف أوراقٍ غامضةٍ
في غابة اللّيل.

- 5 -

تقول لي أيامي، هنا في برلين، واصفةً نفسَها:
«أعرفُ،
لستُ جوهراً، ولا هويّةَ لي
غيرُ هذا الفراغ الذي يتنقّلُ
في أحضان الفضاء.
وأعرفُ
أن ثمّة مكاناً أخيراً
يوحّد الجميع في أبجدية السّراب.
مشكلتي، مع ذلك،
هي أنني في تناقض دائمِ

مع نفسي».

- 6 -

جسَدٌ مقيمٌ في منفى:
مَن منهما
يَقطف ثمارَ الآخَر؟

- 7 -

للرِّيح عَقلٌ
لا يطلبُ الحكمةَ إلاّ من الغبار.

- 8 -

أشعرُ أكثر فأكثر أنَّ الموتَ يمكن أن يجيءَ هو كذلك مُتقطّعاً. أنّ الحياةَ بطيئةٌ لا تكادُ أن تتحرّك. ولا نكادُ أن نُحسَّ بحركتِها البطيئة إلاّ إذا حدّقنا فيها طويلاً حيثُ تُقيمُ في منزلها الأفْضلِ والأبهى: جسد الإنسان.

- 9 -

غرابٌ يقفزُ بين أشجار الحديقة،
في كتابٍ من الصور.

- 10 -

قلتُ لها مرةً، ولم تصدّق:
رأيتُ لبعض الأيام أجنحةً في أقدامِها،

ورأيتُ لبعضها سلاسلَ في أعناقها،
وفي أطرافها جميعاً.
اليوم، تعيّد عيدَ ميلادها الأربعين. هل ستصدّق الآن؟

- 11 -

يتراءى لي، أحياناً، وأنا أسير في شوارع برلين، أنّ للسيارة مخالبَ مغروزةً في كتفي كلّ سائق.

- 12 -

ما هذه السماءُ التي ترفرف دانيةً فوقي؟
رأسها يُلامسُ قدميها،
وهي قائمةٌ - غير أنّها منقّشة بلآلئ صغيرة
تتدلّى منها،
وتتحوّل إلى عقودٍ في أعناق الشجر.

- 13 -

أسيرُ، متقدماً نحو جسَدي،
أحياناً،
يرافقني قمرٌ في هيئةِ مُثلّث،
وأحياناً،
ترافقني شَمسٌ كمثلِ ناقةِ أضناها السَّير.

- 14 -

لم تنجح الشمسُ ، اليومَ،

في رسم صورتها على نوافذ غرفتي.
وكان فَشَلُ القمرِ، في حواره معها،
ساطعاً.

- 15 -

لا يأخذُ الإنسانُ بموته، جسدَه وحده،
يأخذ كذلك، المكانَ الذي عاشَ فيه.
أتاحَ لي أن أقول ذلك،
تمثالٌ لهيجل في القسم الشرقي من برلين، قربَ جامعة هامبولت.
تمثالٌ صغيرٌ. ومنعزلٌ.

- 16 -

حلمت البارحة أنني كنتُ على وشكِ أن أغرقَ في البحر. والموجُ، وحده، هو الذي حاول أن ينقذني.

- 17 -

سأذهب إلى المقهى،
تاركاً شمسَ برلين تنامُ في حضن الثلج.
(برلين، كانون الثاني/يناير 1999)

تلك المرأة-
لم تعد إلاّ ذكرى،
عَلّقتُها في عُنقِ الهواء
صورةً
لا أملٌ من النّظر إليها.

*

كانت، كلّما رأتني، تقول:
«ليتني أستطيع أن أسقيَ
شجرة طفولتي
بماء عينيّ»

*

ذكرى تبدو السّماء فيها
جرحاً يَسيلُ دمه بين دفّتي كتاب
يُعلّمُ:
ليلُ الحبّ شمسٌ في قاموس النّهار،
نهارُ الذكرى أرَقٌ في قاموس اللّيل.

*

باسْمِها

تركض الآن في مخيّلتي
غُرَفٌ وأسرّةٌ وأمكنةٌ
توشوشني:
يكفي، يكفي
أن تتقلّبَ في فراش اللّيل.

*

ماذا؟
أهيَ تلك اليمامَةُ
التي تبثّ هديلَها
في أراغنِ الشَّجر؟

*

أذكرُ
كنتُ أدخل إلى بيتها
مِن شبَكٍ بين جسدينا.

*

مرّةً،
وكنا قد استيقظنا من ليلٍ ظَلَّ هو نائِماً،
أحبّت أن تغسلَ وجهيَ بماءِ عينيها.
ربما لهذا،
أحسّ الآنَ أنّ قدميَّ
تخافانِ من الماء.

*

نزلَ الزّمنُ خفيفاً من عَربتِهِ،
اسْتَرَقَ النّظرَ إليها،
وأخذَها - كاتِـباً إليّ:
«إلى الأبد،
فقدت الدّائرة التي كانت تشعّ
حول خاصرتِها،
خَطّها المستقيم».

*

مثلَها،
لم أعرف من السّماوات
إلاّ تلك التي لا تفارقُ الأرض.

*

الآنَ، بعد غيابِها،
بدأتُ أتَعلّم
كيف أتركُ أحزاني
تسيلُ في الينابيع،
وكيف أقرأُ
شِعْرَ السّفُنِ التي تُدير ظهرَها
لِرياضيّاتِ الموج.

*

اسمي

برعمٌ نحيلٌ

في وَزدةِ اسْمِها،

وما هذه النّهاية

التي لا تلامِس شيئاً

إلاَ حوّلته إلى لا نهاية؟

دخانٌ يتصاعد من الموج

عَلَّمني الأفقُ آدابَ الغيم
غير أنّني رأيث أمسِ،
غيمةً تُغطّي وَجهه،
دون أن تعتذرَ له.

*

هُنا، حيث أسكنُ في هذه الآونة،
يطول كثيراً جلوسُ الغيم على عَرْش الوقت.
غير أنّه يبدو سيّداً وغريباً، يُهيمنُ ولا يتحدَّثُ إلاّ مع آتٍ يجهل مَنْ هو وما هو.
حوله بَشَرٌ،
كلٌّ منهم يرتطم بالآخر، متعكّزاً على الفلك.

*

الفضاء نفسهُ،
يُـطِلّ من نوافذ الثّلج.

*

لا يَرْقَى إلى بياض الثّلج،
إلاّ ليلُ اللّغة.

*

عَامِلٌ في المدينة:
غرابٌ في الثّلج
أُحيّيكَ، أيّها الغريبُ المهاجر، الذي يغسل المدينةَ
لابساً معطفَ الثلج.

*

ثَلجٌ مُهاجرٌ
يترك للمقيم أن يترحّل، بلا حدودٍ، في ذاكرته.

*

أحبّ دائماً أن أرى العالم وأن أقرأه - شارداً في
محيطٍ من الغبار.
اليوم، يُغريني بذلك غُبارُ الثّلج.

*

صباحاً -
عَتبةٌ لا تملُّ من استضافة أقدامٍ تائهة.
شجرةٌ تحكّ رأسَها بمناقير الطيور.
وهذه الغيوم التي تنزل بطيئةً،
دَرجةً درجةً على سُلّم الثّلج.

*

صباحاً -
ما أجملَ عدوانَ ذاكرتي عليّ:

تأخذ مِنّي الحِبْرَ
وتعطيني النّسيان.

*

صباحاً -
ها هي الشّمسُ تَجيءُ
في قوادم الثّلج.

*

صباحاً -
هاجرَ طائرُ الوقت.

*

مساءً -
زَغَبٌ يَنبتُ بين فَخذيْ اللّيل.

لحافٌ مَليءٌ بالثقوب

- 1 -

كتبٌ على الطّاولة،
كتبٌ حول فنجان القهوة، حول
العتبة، على المقاعد،
كتبٌ - حروبٌ:
بين العاشق والعاشقة،
النّاس والنّاسِ
العملِ والقَوْلِ، -
النّوافذ صَرِيرٌ، والغرفة أمٌّ ثَكْلى.

- 2 -

كَلماتٌ لا تتوقّف عن بناء البيوت،
بيوتٌ لا تتوقّف الحياة عن هَدمها.

- 3 -

قرأتُ، أقرأ
ثَمَّةَ أفكارٌ تُسيّرنا
كمثل آبارٍ عتيقة خفيّة،
لا يعرف أن يكتشفها إلاّ عِلمُ الطّحالب.

- 4 -

مَا أطيب وَخدتي -
ليس لأنَها تعزلني،
بل لأنّها تُبَعْثِرني.

- 5 -

زارني اللّيل، أمسِ، راجلاً -
رفضَ أن يأخذَ القطارَ
الذي تأخذه النّجوم.

- 6 -

دَمُ الشّمس نفسُه
يبدو أسود في جَرَةِ اللّيل.

- 7 -

وحيداً
سَأسهرُ اليومَ، بِفَرحٍ
في بَيْتِ أحزاني.

- 8 -

دائماً، تنجح الغيومُ وترسم
خريطَة الفضاء،
متى ستنجح النّجوم؟

- 9 -

تَعاطُفاً مع شمسٍ فقيرةٍ
لا يسير الوقت في كمبردج
إلاّ في عَربةٍ من الغيمِ.

- 10 -

غرابٌ
يَتَدَحرَجُ صوتُه بين قدميَّ.

- 11 -

أفكّر في بعضهم:
مَنْ لا طريقَ له،
يَنقَطِعُ لكي يقطعَ الطّرق.

- 12 -

زهرةٌ -
تضع يديها على رأسِها.

- 13 -

بَرْدٌ، وأنا في حضن الشّمس.

- 14 -

يا قامة كَنستناءِ الخيل،
معك الحقّ -
ثوبُ هذا النّهار الغائمِ

ضيّقٌ عليكِ.

- 15 -

أوه - لم تكد الشّمسُ تفرش منديلَها،
حَتّى أخَذَ الغيمُ يَطويه.

- 16 -

أنام -
الحزن بين ذراعيّ،
والفَرحُ في صدري.

- 17 -

لم يعرف حلمي
أين يُطلق الطّير الذي صادَهُ أمسِ
في غابة اللّيل.

- 18 -

الجسَدُ في آنٍ
نرجسٌ وبُحيرة.

- 19 -

أنْضجيني، أيّـتها الشّمس
اقْطفني، أيّها اللّيل.

- 20 -

الأفكارُ، مفصولةً عن الجسد،
ليست إلاّ طيوراً من القَش.

- 21 -

لا غطاءَ في بَرْدِ هذا العالم،
إلاَ اللّغة.
واللَغة لِحافٌ مَليءٌ بالثّقوب.

- 22 -

عَبثاً، تُحاول كتابةُ الفضاءِ
أن تُقاوِمَ مِفحاةَ الرّيح.

- 23 -

قَبلتِ الشَواطئُ أن تكون بيوتاً للأمواج،
لأنَ الأمواجَ هي نفسها رحيلُ الشواطئ.

- 24 -

حسناً، سَأسْدِلُ ستائرَ غُرفتي، -
ماذا تريدُ أن تقولَ لي،
أيّها الحبّ؟

(كمبردج 17 أيلول/سبتمبر 1996)

أعندكِ موعدٌ آخَر تُسِرَينَه ، أيّتها العاشقة؟

- 1 -

جاريَ الذي يكرِّرُ معلناً أنه شاعرُ العصر، لا يكفيه أن يعذِّب اللّغة: أن يعلِّقَها من نهديها بمسامير اللّغو. يحلو له كذلك أن يعذِّب الهواء.

هاجِري هاجِري، أيَـتها الأبجدَية.

- 2 -

حوّلَ المرأةَ التي يحبّها إلى أيقونةٍ، وقال لمخيِّلته: لَوِّني.

ثم قال لأطرافه: كوني إطاراً.

- 3 -

أعيش في كَنَفِ الموت:

عقلي مقتنِـعٌ

لكن، كيف أقنع جسدي؟

- 4 -

لا أحبُ أظفاركِ الطويلة، أيَـتها الشَمس.

- 5 -

الأفق، هذا اليومَ،

مخمورٌ بالشّمس.

- 6 -

دمُ القافية يسيل على باب الشعر،-

انهضي،

وَهيّئي خيولكِ، أيّتها اللّغة.

- 7 -

دجلة يقبر النّاس

والفرات يودّع أصدقاءه:

بينهما يثرثر الرّمل.

- 8 -

لا تَخف

إلاّ من الكلماتِ التي تخاف.

- 9 -

كانوا يأمرون الهواءَ أن يلبسَ خوذةً

والعصفورَ أن يطلقَ الرّصاص.

- 10 -

أفهمكَ، أيّها الفشل:

لا شيءَ هنالك يُحبّبُ النّجاح.

- 11 -

أنفاسي
هي التي تسجنني.

- 12 -

من يقدر أن ينفي الحبّ الجارفَ حتّى الموت
بين الماء والنّار؟

- 13 -

قربَ سريرها دميةٌ
تكاد أن تغارَ منها.

- 14 -

تاريخٌ -
جَلاّدٌ في قَضر الزّمن.

- 15 -

ما دام التفّاحُ يسقط،
فمن الوفاء لحوّاء
أن نأمل بالصّعود.

- 16 -

لاَحَقّ للماء
في الرّجوع إلى نبعه.

- 17 -

كلاّ،

ماطِلي، أيَـتها السّعادة،

لا تعطيني ما طلبته منكِ.

- 18 -

أجمل ما في العاشقين

أن يظلاّ خُطاطةً

لقصيدة الحبّ.

- 19 -

لي سفينةٌ في بَحْر الحلُم،

وبيتٌ متنقّل على شواطئه.

- 20 -

تلك براعمُ غير عادلة:

لماذا لا تعطيني الحقّ

في أن أنافسَ الفراشاتِ والنَّحْلَ

على رحيقها؟

- 21 -

نجومٌ -

يعشن داخلَ بيوتهنّ،

لا موعدَ لهنّ، ولا لقاء.

- 22 -

الطمأنينة حالة الطّبيعة،

والقلق حالة الكون.

- 23 -

وجهكَ شاطئٌ لأمواج حزنك

وعيناك المَرسى.

- 24 -

وداعاً للكؤوس في حانة الحاضر:

المستقبل يُعتِّق خموره.

- 25 -

للمغامر هلالٌ في جبينه،

ونجومٌ في قدميه.

- 26 -

- حَظٌّ

يقف دائماً على الحافّة

لكي يُمسِكَ بي.

لكن، أيّـها الحظّ،

ماذا أقدر أن أفعلَ

حيث الثروة هي نفسها الفقر،

والشبع هو نفسه الجوع؟

- 27 -

لماذا، حين تجودُ الطّبيعة،
يبخلُ الشعر؟

- 28 -

نعم، خَبَرتُ ذلك بنفسي:
قلبها وحشٌ،
وجسدها حقلٌ من الوَرْد.

- 29 -

اللاّنهاية؟
بعضهم يقيسها بالفضاء (ولا أميل إليه)،
وبعضهم يقيسها بالجسد.

- 30 -

بدأت أجنحة الغيم
ترفرف على وجه الشّمس:
أعندكِ موعدٌ آخَر
تُسِرّينه، أيّتها العاشقة؟

- 31 -

الظّلمة مِرآ ةٌ
لا يرى الضوءُ وجهَه، حَقّاً، إلاّ فيها.

- 32 -

ينكره بذارُه، وينكره الثمر:

أيَـة فاجعةٍ،

أيَـة غبطة!

أيّامٌ - قُبَعاتٌ من القَش

- 1 -

أتكلَّمُ - لا صوتَ لي
غيرُ كلماتٍ لا صوتَ لها.

- 2 -

هل الفضاءُ سجنٌ
يحرسه الهواء؟

- 3 -

لاَ تَقِفْ - إجْرِ، أيّها الدّمع،
لكي لا تَفرغَ سماءُ الجسدِ
مِن الغَيْم.

- 4 -

صَدَّق المنجِّم نفسه
فَـنَـذَر حياتَهُ
يهتفُ للغيب ويوشوش السّماء.

- 5 -

يُغَذّينا الشّعرُ،
فيما يَلْتهمنا.

- 6 -

النَّهارُ هو، كذلك، امرأة:
أبسطُ تشريحِ لجسد اللّيل
يُـثبت هذا القول.

- 7 -

لا أعرفُ كيفَ أرتقُ جسدي
الذي يمزّقه قلبي.

- 8 -

دائماً، أدعو اليقينَ إلى مائدتي،
فلا يَجدُ عليها غيرَ الظنّ.

- 9 -

نعم، فقدتُ ثقتي، -
لم أعد أثِـقُ حَتّى بالبحر.

- 10 -

عِشتُ، -
لم أفهم الماءَ
وَجهلتنيَ النّار.

- 11 -

يا حبّي،

لماذا أريدُ أن أقودكَ

إلى وادٍ غير ذي زَرْع؟

- 12 -

انظرْ إلى هذا العَصْر من أيّة جهةٍ شئت:

لن تَرى إلاّ ما يُذكّر بالرّماد.

- 13 -

اليومَ، رأيتُ القمرَ في المدينة

يجرّ وراءه اللّيلَ.

كنتُ عائداً من تحت الشّجرة

التي تضطجعُ بين فخذي

ينبوعٍ يَستضيفُ قوافلَ العابرين.

وكانت غيومٌ تتناثَرُ

زرقاء رماديّة،

كمثل تخطيطاتٍ

متموّجة، ترسمها

يَـدُ البحر على صَفْحةِ

الأفق.

- 14 -

أيّامٌ - تتطايَرُ عن رَأْس الزّمن

كأنّها قُـبَّعاتٌ مِن القَشّ.

- 15 -

الحَجَرُ -

هذا الحجر الذي تُصنع منه تماثيلُ النّاس،

أضغي إليه يَبكي

على صدر الإزميل.

- 16 -

يَـنحدِرُ الهواءُ

لكي تَصعدَ الأرضُ المُقعَدَةُ،

في وَادٍ ليس إلاّ عيناً سوداء

يحملها الحلم كلّ ليلةٍ

إلى رؤوس الجبال.

- 17 -

لاَ تشْحَذي سِكِّينَكِ أمامَ شقائقِ النُّعمان،

أيّـتها الشّمس،

يكفيكِ ذلك الدّمُ غَيرُ المرئيّ

الذي يسيلُ منها

قُرباناً للفضاء.

- 18 -

عندما زُرْتُ جارَنا الخارجَ من السَجن،

كانت نافذةُ بيتِهِ تنتحب،

وكان الموتُ يجلسُ على العتبة.

- 19 -

هنا - كنت أجلس، في فَصْلِ الحَصاد،
تحت زيتونةٍ مُعَمَّرة
أراقِبُ النَّملَ كيف يدخل إلى بيته
حاملاً مؤونته من القَمح.
هنالكَ - أضغيتُ للعنادلِ
تغمسُ مَنَاقيرَها
في محابرِ المساء.

- 20 -

زَمنٌ - لم يعد أحدٌ فيه
يقدرُ أن يزرعَ حقلَه
أو أن يَحصدَه
إلاّ مُتـكِلاً على آخرَ يَـتـكلُ على آخر.

- 21 -

هُبّي، أيّتها الرّياحُ، سَاعِدينا
لكي نُشعل النّارَ
في صحراء هذا الجليد.

- 22 -

«كلُّ ابتكارٍ هَرْطقة»:
قولٌ يؤكّده التّاريخ،
وتؤكّده حياةُ أسلافِنا.
أسألُ مَنْ يشكّ:

هل تقدرُ أن تدلَّني

على ابتكارٍ واحدٍ لِلتقوى؟

- 23 -

بيني وبين الرّيح، في الرّبيع،

عداوةٌ قديمة:

كانت كلّما حرّكَتْ أعشابَ حقلنا وأزاهيرَهُ،

تأخذُ العِطرَ،

وتملأ عينيَّ بالغبار.

- 24 -

أشعرُ أنّني في حاجةٍ ملحّةٍ

إلى شَخْصٍ

يعرف كيف يدخل إلى نَفسي

ويُحصي خَطاياها.

ولكم أشتهي، هذه اللّحظةَ،

أن أُصْغيَ إلى قيثارِ أورفيوس،

وإلى الفارابي يَتحدّث عَن الموسيقى!

(21/3/2002)

شواطىء

- 1 -

ما أشقى ذلك البحر:
كلّما غسلَ شطآنهُ
ازدادَت عفونةً
- مرحباً، أيها البحر، كيف حالُكَ، أيّها الشّقاء؟

- 2 -

شواطئ -
تتناثَرُ حولها أضراس بَلاغةٍ
لا تَلوكُ إلاّ الرّصاص.
والبَشرُ - كلٌّ يَزتطِمُ بالآخر
يَتعكّزون على الفَلَك، ويُوشوِشونَ أنقاضهم.
وما نُسمّيه الفَجر
قلّما يصل إليهم إلاّ حامِلاً
سُقْطاً من أمّـه السّماء.

- 3 -

شواطئ -
شِفاهٌ شاخت وهي تثرثرُ
حول طفولاتها
في بيوتٍ من الملح.

- 4 -

شواطئ -
غَسَقٌ هائِلٌ
من رؤوس البشر.

- 5 -

أين تهربُ، أيّها المسافر؟
كيف تقدر أن تتبرّأ من أمواج الشواطئ
كيف تقدر أن تغسل يديكَ من دم العصر؟
خيرٌ لكَ أن تأخذَ قُفّازَ اللجّة
وترميَهُ في وجهِ الدّنيا -
آنذاك سيغنّي معك الشاطئ:
«على الشّاطئ قرصُ الشّمس،
تحت القُرْصِ جسدُ حبيبتي».

- 6 -

أكيدٌ أن للغيوم، هنا، أجساداً
تهتدي بأفخاذ النجوم.
أكيدٌ أنّ هذا السّائلَ
الذي يتقطّر مِنها على الشواطئ
ليس إلاّ عَرَقَ السّفر الطّويلِ
في صحراء الفضاء.
ألهذا تمخضَتِ الثوراث، هنا،
فلم تَلِدْ إلاّ المقابر؟

ألهذا لَمْ تعودي تهبّين -
أيّتها الرّفيقةُ، يا ريحَ الشواطئ،
إلاّ عندما لا أشاء؟

- 7 -

شاطئ -
لم يعد للشمس فيه،
إلاّ أن تلبس حزامَ العفّة.

- 8 -

يا لَهُ من تُراثٍ راءٍ:
يترك وراءَه شطآناً
لا تحيا إلاّ بأشخاصٍ غَيْر مَرئيّين.
التاريخ فيه عملاقٌ بعينٍ واحدة،
والزّمن جنديٌّ
يخدم اضطراراً في ثُكْنـةٍ مُقفرة.

- 9 -

شاطئ -
جَبلٌ من الأفكار، محمولٌ على رأس كلمة.
فكرٌ كمثل كتابٍ موجزٍ عن السيَر
غيرَ أنّه لا يعلّم إلاّ تعطيلَ المرور.

- 10 -

شواطئ -
أشجارٌ ما أشقاها:
كلٌّ منها تطمح إلى أن تُصبحَ عصاً.

- 11 -

شاطئ -
أمواجٌ ترش على أنوثة الأرض
عِطرَها المالح.
لنَجمة المساء فوقه
كرسيٌّ
تحرسه ملائك النفايات
كأنّه آدَمُ ثانٍ.
أبٌ لِسُلالةٍ
تعزف حياتَها على قيثار الموت.
تُهيِّأ فيه كيمياء خاصة
لِتنويم الهواء.

- 12 -

شواطئُ -
في كلٍّ منها أكثرُ من أوفيليا عائمة،
لكن،
ليس في جُبّةِ هاملت، إلاّ قَيْس.
(بيروت، تموز/يوليو 1997)

ارتجال

لا أعرفُ كيف أمتدحُ
تلك القارَةَ التي أنتمي إليها.
مع ذلك،
يَطيبُ لي أن أقولَ ارْتجالاً:
قارةٌ
نَذَرتْ جسَدَها لِعَملٍ واحد:
أن يقاتِلَ بعضُهُ بعضاً.

*

حتّى فترةٍ قريبةٍ،
لم أكن مُـتَـيَـقّـناً
أنّ الشّتاء يَنامُ في سرير اللّغة عارياً.

*

كانت البحيرة
تتموَجُ بين ذراعيكَ
وكنتَ تَوقّفتَ عن النّظر إلى الماضي:
هكذا، خِلافاً للعادةِ،
يبدأ الحبّ.

*

كتبَ إليها:
«لأنَكِ تَجرّأتِ وأخْطأت،
سَأبرّئِكِ من كلّ خطيئة».

*

من زَمَنٍ، يكتبُ إليَ اللّيل،
كان يريدُ أن يتحدّثَ معي،
ولم يكن الوقتُ يُسعِفني.
أمسِ، عندما أسعفَ الوقتُ والتقيتهُ،
لم يقدر أن ينطقَ بكلمةٍ واحدةٍ:
كانت حنجرتُه مليئةً بوَرْدٍ يابسٍ
لَفَظَتْهُ حديقةُ النّهار.

*

كادَ عَقلٌ الكترونيٌّ
في مدينةٍ تحرسها الآلهةُ،
أن يَنفجرَ،
عندما سَمِعَ وَقْعَ خُطواتِ الأرقام،
على الجِسر الذي يَصلُ
بين مَضرف الرّوحِ وشارع المادّة.

*

أمَا رأيتَ
كيف أدارتِ السّماءُ ظهرَها

وهي تركبُ شَهاباً أحمرَ،
له شَكْلُ صاروخٍ أِغمَى؟
أما رأيتَ الجبالَ والشّجرَ والبيوتَ
تَنحني أمامَها كأنها تُقبّل الأرض؟

- 1 -

تولد السَماءُ في أحضان الشَجر. وثمة أبراجٌ
من البياض تتساقط من أعاليه.

- 2 -

حزامٌ من الهواء يضغط على جدائل الشَجر.
ينزل منها مَطرٌ في خيوطٍ من الكريّات.

- 3 -

وُلدتُ في مَـهْـدٍ
لا أجدُ غيرَ الجُرحِ
اسماً يَليقُ به.

- 4 -

كَـتَـبَتْ إليه:
«لولا وَهمي،
كيف كنتَ ستعرفُ واقعكَ؟»
وكتَبتْ:
«ثمَةَ ظلامٌ آخَرُ
يَظلّ رفيقاً لِلسَفرِ داخلَ النّور.
لولا ذلك، لكان السّفَرُ نفسُه نُـكوصاً».

- 5 -

كتَبَ إليها:

«جسدُكِ نَدىً

وسريركِ نَرجس

هكذا،

أصدَقُ فيكِ الغيم

وأكذَبُ الشّمس».

- 6 -

كتبتْ إليه:

«عندما نتحاورُ أشعر أن شفتيَ لاصقتان بِشفتيكَ، وأنّ فمي يَنْغلقُ. يتحوّل، بالأحرى، إلى موضعٍ للشَغفِ، لِلّذةِ وخَلْقِ اللذّة.

هكذا أجِدني أمامَكَ صامتةً لا أعرف ما أقول، متخيّلةً كيف أخلق تلك الملذّات.

لا تتكلَمْ».

- 7 -

لا يكفّ عن اللَعب، مكرراً دائماً:

اللّعب أوّل الفاجعة.

- 8 -

بدأتُ أقتنعُ:

من الممكن أن ننتقدَ الأفقَ

انطلاقاً من الغيم،
أو على العكس:
ننتقدُ الغيمَ
انطلاقاً من الأفق.
هل يمكن أن يُفيدَ من هذا النقد،
غيمُ الشعر وأفقه؟
خصوصاً أنّك، أيّها الشّاعر،
أنّى ذهبتَ، أنّى كنتَ، كيفما صرتَ،
لا طريقَ لكَ إلاّ الغيم.

- 9 -

«ربّما تُشوّش الأسئلةُ الحواسَّ، وتُفقدها الفِطرة، كما تقول.

لكن، دون أسئلة، أو دون القدرة على طرحِها، لا تَحيا الحواسُ إلاّ في مستوى الطبيعة الدنيا - طبيعةِ الحيوانِ غير العاقلِ».

- 10 -

مقهى فلوريان في ميونيخ: كان ينبغي، قبل مجيئي إلى هذا المقهى، أن أدعوَ ذلك الأسبانيَّ - العربيّ الذي قال لي إنه من قادش، وأن أسلمَ نهاري، ولو قليلاً، إلى بُخار التّاريخ.

لماذا يتعذّر عليَ، أحياناً، أن أوقظكِ أنتِ، أيّتها الغابة النائمة في أحشائي؟

وصفَ نفسه في المقهى قائلاً:

«صامتٌ بين الناس،

صامتٌ في عزلتي،

ثرثارٌ

خارج هاتين المنزلتين».

- 11 -

سألَتْني:

«هل يحلمُ اللّيلُ؟

وإذا حلم، هل يحلم حقاً بالنّهار؟».

- 12 -

أمس،

أيقظتني الشّمسُ

وكنتُ أحلمُ بها.

- 13 -

فَقَدَ صديقته، فكتب إليّ يبكيها، قائلاً:

«جسدٌ بهيٌّ تَزدهي به الأسِرَة

يُرمَى أخيراً في حُفْرة!

وليست المسألةُ مسألةَ فناء،

بل مسألةُ حَياء».

- 14 -

أجراس حِبْرٍ

ترنّ في صحراء الورَق -

أهِيَ إشاراتُ المعنى؟

- 15 -

زمنٌ -

تكاد فيه الشّمسُ نفسُها

أن تكونَ حجاباً.

- 16 -

أمسِ،

رأيتُ للفجر ثديين.

وقلتُ: ذلكَ تأويلٌ لأيَامي.

لكن تعقلَي أنتِ، أيّتها الغيومُ

في تآويلِك:

ما هذا الجنون الذي يعلّمكِ

ألا تَرين في صحرائيَ غيرَ البَحر؟

- 17 -

انظرْ إلى الغَيم،

كأنّك تنتظرُ نُبوءةً.

- 18 -

أرجوكِ، تباطأي، إذا عبرتِ يوماً

قربَ حقلٍ من الوَرد،

خصوصاً ذلك الذي يعمّر عُمرَ الغَيم.

- 19 -

كيفَ أحصدُ أيامي؟

ضُرِبَ عليها حصارٌ دائمٌ

وتأبى أن تستسلمَ

لأي مَخْرج، أو لأيّ مَهْرب.

- 20 -

كتب إليه قائلاً:

«ذلك الذي يُحارِبُك، يا صديقي،

يَعرف كيف يَسيرُ

في حقلِ التعاليم:

يحمل نِيرَهُ، جيّداً».

كونشيرتو بيروت آب 2006

كونشيرتو بيروت آب 2006

- 1 -

ببطءٍ تِسيرُ أيّامُنا - هِيَ الأكثرُ خِفّةً من الهواء. أهُوَ ما يدعوكَ إلى النّوم؟ رِغبتيَ الآنَ أن أستيقظَ في موسيقى بيتهوفن.

الأفكارُ، في هذه اللّحظة، طيورٌ من القَشّ.

- 2 -

هل نَسيت الشّمسُ نشيدَها الذي كانت تغنّيه في ساحة البرج؟ متى سيُصلح الفجرُ عربتَه، ويخرجُ من بيتِهِ في ثياب العمل؟ وهذا الغُبار الذي تَرْتجِلهُ القذائف، متى سَتكنسهُ الرّيح؟

*

أستَضيءُ بهذه الأجساد التي مَزّقتْها الآلات، وَتَبَعثرَتْ في المعادن والحجارة، في الذّرات والكهارب. لكن، كيف أسندكَ وأنتَ مَن قَصمَ ظَهْري؟ ولا جَدْوى في أن أقول لكَ: وداعاً. هذهِ كلمة لا يَعرفها قاموسُ الضَّوء.

*

هكذا، فوّض إليّ الحلمُ حِراسةَ أبوابهِ، وأخَذَ مَفاتيحَها. هُنا على سَطح هذه الورقة، تَغْدو أفراسهُ

وتَروح. ماذا أقولُ، أيّها الحلمُ، لِدميَ الذي يَسيلُ في مُنحدراتِ أخرى؟

*

خان الموسيقى -
لا آلاتٌ. أوتارٌ تتقطّع غيرَ مَرئيّةٍ.
والأصواتُ كمثل مَطَرٍ في غير أوانه.
خان الحرير -
خيوطٌ تقود إلى لامكان.
هل تأخذون شرابَ التّوتِ مَسكوباً
في كؤوسٍ، كأنّها شَرانِقُ مِن القزّ؟
خان البَـيْض -
كلّ خارجٍ مُتهم. كلّ داخلٍ بَريء.
خان البَزبير -
نَوافِذُ كمثل أهدابٍ تَسبح في بُحيرةٍ من الدّمع.
خان الحَلاّج -
لا ينتظرُ أحداً. لا يأمل شيئاً. جَسدٌ واقِفٌ يَتعكّزُ عليه الهواء.
خان السيّد -
هل السيّدُ لا يزال يغسلُ وجهَه في حَوْضٍ من الدّم؟
خان التّوتة -
ما أعجبَ هذه الشّجرة. لا تتوقّف عن السَّير، لكن صُعداً. سَماءٌ قبل السّماء.
خان شيخ المكاريّة -

الطّريق إلى بيت المرأة التي يُحبّها، انقطعت.
وها هي تموتُ فاتحةً ذراعيها.
خان تابت -
ما أكثر التّجاعيدَ في وجه هذه الدَّرب،
ما أعمقَ الحُفرَ في جسَدِ هذا الوقت.
خان سوق الطويلة -
ينسكب الصّباحُ من إبريقه كمثل شايٍ أخضر.
خان الصّغير -
أخذته طفولة الحركة.
خان سعيد آغا -
يَدُ السّفر على جبينكَ،
والحيرةُ رأسُكَ الآخر.
هل سيكون البُعد شَرياناً لِلقُرب؟
هل سَتكون المسافَةُ رئةً لِلمسافر؟

- 3 -

مَعاً، في اللّحظة نفسها، يهبط في نفسيَ اللّيل، ويطلعُ الفجر. مساءَ الخير، أيّتها الخِرافُ التي تَرْتَعُ في حَدائقِ المادَة. صباحَ الخير، أيّتها الذّئابُ التي تَسرَحُ في مدائنِ اللّغة.

ما لهذا الزّمنِ لا يكفُّ عن جَذلِ الأفقِ بحبال اللّهَب؟

ألديكَ، أيّها المستقبل، خَيطٌ أقَلُّ وَهَناً مِن خَيطِ هذه اللّحظة؟

وأنتَ، يَابْنَ آدمَ، هل ستَرقدُ يوماً بلا جراحٍ، بين الفُراتِ والنّيل؟

- 4 -

- «أيُّ الملائكةِ أكثرُ إصغاءً لابْنِ آدم»؟

سَألني رأسٌ إلكترونيّ. لا أعرف. تبدو تلك المدينة كمثل مركبٍ: تُجدِّف، وما أبْعدَ الشّواطئ.

كأنما لم يَبْقَ ما نُراقِصه غيرُ الدّخان.

*

لِيَهْبُطْ قُرّاءُ السَّماء على أرْضِنا، إن كانوا يُريدون أنْ يُصغوا، أو أن يَقْرأوا ما كتبته نجومُهم عَنّا.

- 5 -

اسْتَيْقظَ. لم يَجِدْ خبزاً. مَعْ أنّ ذاكرتَه مَسرحٌ دائِمٌ لِلقمح وسُهوله. غَسَلَ بماء عينيه وَجْهَ الصّباح. تلك لحظةٌ لم يقدرْ أن يتحدّثَ فيها إلاّ مع الرُّكام والأشلاء، مع الثّقوب والتصدّعات. أرجأ الحوارَ مع الأكفانِ والقبور. ومع رؤوس الأطفالِ المُهَشَّمة. لم يعرف ماذا يقول عن أولئكَ الذين تركوا بيوتهم إلى الطائراتِ والقنابل الذكيّة.

أيُّ طَبقٍ شَهيّ يُقَدَّم لكمُ الآن، أيّها الجُنودُ الأسرى، الذين خُطِفوا لكي يُقيموا في بَيْتِ الله؟

وكيف يبلغُ سِنَّ الرُّشدِ شَخصٌ تَلدهُ الآلة؟

- 6 -

غَيبٌ لم يُعطني مِن أبوّتهِ إلاّ شَجرةً لا تُظلّل ولا تُثمر. حَقّاً، الغيبُ لِلاَ أحَدٍ، والواقعُ لهيكلٍ يُزفَعُ بِاسمه.

غَيبٌ - خَاتَمٌ في يَدِ البَطْش. أو في يَدِ المُصادَفة.

ألِهذا، أيّتها الأيّام التي تخرجُ من إصْطَبْلِ السَّماء، تَعرجُ خيولكِ، وتَتصبّب عَرَقاً؟

ألهذا، لا تقدر الغيومُ التي تُسيِّجكِ أنْ تقدّمَ قَطرةً واحدةً لهذه الأرض التي تَتشقّق عَطَشاً؟

*

صِنّينُ، خُذْ شتاءكَ وَوَزِّعهُ على فقراء الصّيف. خُذْ عِصِيَّكَ - النّجومَ والشُّهُبَ والمجرّاتِ، وهُشَّ بها على الحقولِ والأوْدية. قل لِلصّحائفِ التي يَعشَقُها حِبركَ أن تَمسحَ الغبارَ عن جبينِ الفضاء.

أذمِجْنَا في شُعاعِكَ. أهِّلْنَا لكي نكونَ هُبوباً في هوائِك. ألْهِمنَا لكي نخترقَ هذه الكثافة، ولكي نعرفَ كيف نكتبُ الفَجْر.

- 7 -

هُوذَا حِبرُ لبنان. يَتدَفّق من أماكِنَ - حُقولٍ للمشرَّدين والقَتلى.

لكن، هل صَحيحٌ أنَّ علينا ألاّ نكتبَ عن امرأةِ العزيز؟

أسمعُ كَنارِيّاً ينشجُ على قميصها. تُغطّيها أقنعةٌ، وعطورٌ وخنافِس. يهجم عليها الزّمَنُ كمثل رضيعٍ يهجمُ

على ثَدْيَيْ أمّه. تُحيط بها أزهارٌ ليست إلاّ أجساداً لنساءٍ في أَسِرّة الحبّ. قدَماها سلاسِلُ والسّماءُ هي التي ترقصُ بهما.

شَيَّخت حَتّى الرّياحُ التي تهبُّ في بساتينها.

لكن، هل علينا أنْ نتخيَّلَ ما لا نَراه، لكي نُحْسِنَ رؤيةَ ما نراه؟

لكن، عَمّقوا، عَمّقوا نبعَكُم الكريمَ صِنَين.

- 8 -

- لا تسألني. لا طريقَ له.

- تلك هي تماماً طريقه.

- لا تسألني. أنت لا توقن، وأنا لا أشكّ.

- آهِ من علم الهيئة: مَا أوضحَهُ، وما أكثرَ التباساته.

ألنْ تَضْطرب، أيّها الورَقُ، أمامَ احتضار المعنى؟

الدّروبُ كلّها،

لا تنفتحُ إلاّ في اتّجاه الهاوية.

وها هو الحاضرُ يدبُّ على أدراجٍ من الدَّم،

وَيَلْتَحِفُ سماءً حمراء.

- 10 -

لاَ مَأوَى في الكتب. ولا بُدَّ من أنوثةٍ لذكورة الوقت.

يكاد جسَدُه أن يذوبَ في مياهِ لُغاتٍ لا أبجديّةَ لها. والعجَبُ أنّهما في مقام الصّفر، ومع ذلك يَجلسان تحت ظلّ الواحد.

كمن يُمَسرِحُ الماءَ على خَشبةِ الرَّمل.

هل يَثِقُ، إذاً، بكيمياء المعادِن وَسِحر الأنابيق؟ بأفكارٍ تُزهرُ وتذبلُ في حَقْل النَّوم؟ بنورٍ لا يُضيء الشَوارعَ بل خطواته؟ برِجالٍ يَتكلّمون مع ظِلالهم، ونساءٍ يُغازِلْنَ ثِيابَهنّ؟

سِيري، يا أيّامَهُ، على عُكّازاتٍ من قَصَب اللّغة.

- 11 -

لِماذا لا يُشحَذُ سيفُ الحاضرِ إلاّ لكي يَسهرَ على صَلاةِ المستقبَل؟ هكذا تبدو الحياة كأنّها ليست أكثرَ من حَاسّةٍ للموت.

تجلسُ القنابِلُ على أبواب المدارس. وتكون الخنادقُ أسِرَةً للأطفال.

*

اربطوا، إذاً، عُنقَ هذه الأرض بَحبْل هذه السَّماء. سَمُّوا طائراتِكم وَصَواريخكم بأسماء أنبيائكم. حَقّاً، هنالك أشِعَةٌ لا تقود إلاّ إلى الظّلمات. حَقّاً، القوّة مَرَضٌ، واليقينُ عُصاب.

القمر يشكّ في أحواض النّساء.

هل على اللّغة أن تَدفعَ ضريبةَ الوِلادة؟

- 12 -

طُمِرَ الكَلامُ في طَمْيِ المَوْتى. طُمِرَ الأحياءُ في طَمْيِ الكَلام.

تَدفَّقْ، تَدفَّقْ أيّها السَّيلُ السَّيل.

تُجّارٌ وآلهةٌ: نبيذٌ واحدٌ، كأسٌ واحدة.

أفقٌ يَعرجُ، طيورٌ تَأكْسَدَتْ.

يَا لَلْجَسَدِ الذي يَنْخُرُ - لا يَنْخُرُ إلاّ نَفسَه.

العَذابُ هَواءٌ داخلَ الهواء.

اسألونيَ: ما الواقع؟

وسوفَ أجيبكم: إنّه اللّه في ثيابِ العَمل.

- 13 -

نَادِها - عَنيتُ المدينة

سَترَى أنّ المُنادىَ يتجزّأ. يتبدّدُ في أسماءَ كثيرة، وكلٌّ يتساءَل: أأنا مَنْ تُناديه؟

سَترى أنّها كمثل الغطاء: كلٌّ يَسحبُه إليه.

كأنّما لاَ فضاءَ لها غير الثّلج.

وَتنظرُ: لا ترى ما تَنظرُ إليه.

- 14 -

إظْهَرْ، أرجوكَ، لحظةً واحدة.

في هذه الصّحراء الهائلة من الرؤوس والأرجل،

أنتَ، يا مَن ابتكرَ الأبجديّة.

اللّغةُ هي نفسها حصار.

وليس لِلسّماء كلامٌ غير الرّماد.

رِيحٌ مريضةٌ تهبُّ في الكَهارب والذّرات في جنازاتِ لِلصّداقة والحبّ في مآتِمَ لِدَفْنِ الأفكار في دروبٍ لم يعد النّملُ نفسُه قادراً على الدّبيب فيها.

يَدُ السَّماءِ تَعمل بِشَكْلٍ وَثيقٍ مع الحرب: كلّ شيءٍ زائلٌ إلاّ القَتل.

أمرٌ نُقِشَ على قُرْصِ الشّمس:

«لا تغيّروا النّاسَ، امْحُوهُم.

أن تحيا هو أن تُبيدَ وتَبيد.

الوجودُ فَنُّ الفَناء.

آذانُ هؤلاء الرّجال أقراطٌ لآذانِ تلك النّساء.

كَوْنٌ يُؤلّف كما تُؤَلّفُ الخُرافة.

إنّه البخارُ السّماويُّ.»

أعرفُ أنّ الرّوحَ لا تُقيم أعراسَها إلاّ احتفاءً بالمادّة.

لكن، هَل، حَقاً، من الظّلام الأوّل يخرجُ الضّوء الأوّل؟

سألتُ بيتهوفن. قال: أجيبكَ بما أجبتُ نفسيَ -

إنْ تركتُ حَبْلَ العالم على غاربِهِ،

إن لم أقلْ له: طريقُكَ وقبضتي رفيقتان،

أفلن تنقلبَ عليّ الوحوشُ التي تختبئ في ذاكرةِ التّاريخ؟

لكن، عَليّ أنْ أقولَ لبيتهوفن، دون أن أوَدّعه:

ببطءٍ،

يَخفقُ، هذه اللّحظة، قلبُ الأرض.

(باريس، آب/أغسطس 2006)

في حديقة جسديهما (هي وهو)

- 1 -

يكتب تاريخ أعضائِها - الليّنَ منها والصُّلبَ. ما بين.
النّافِرَ والغائِر. ما بَيْنَ. المستقيمَ والمقوّس. ما بين.
-يستيقظ، يتحرّك، يفكّر، يقرأ،
حاملاً ليلَها في أعضائه.
-عيناه ذرواتٌ
تُشرِفُ على حُقولها.

لم يُشَرِّخ. لم يَشرَخ.
رَمَزَ، وأوْمأ.

- شَمسُ حرّيته
ساهرةٌ على حديقة جسدها.

مَعَها
لا يعرف الخيبة،
ويجهل اليأس.

- ألِهذا يخاف منها؟

- 2 -

يَعجب كيف يفهم الدّاخِلَ
أكثرَ مِمّا يفهم الخارج.
كيف يغمضُ عليه السَّطحُ،
فيما يَتَّضح له العمق.

-غيمُ كلماتها
يُمطر في أحشائه،
لا يمطر إلاّ أسئلةَ الحبّ.
- يُعيد ابتكارَ جسدها
لكي يُعيدَ ابتكارَ لغته.
-لا تراه الجبالُ،
وتراه عشبةٌ في آخر حَقْلٍ
على ضفافِ أقصى ينابيعها.

- 3 -

يَسهلُ عليه وصف أسرارها الباطنة،
فيما يصعب عليه
وصف أشكالها الظاهرة.

-يحتضنها
كأنّه يحتضن يومه الأوّلَ
على الأرض.
-بصيرٌ بين أحضانها كأنّه
الضّوء،
ولا يرى كأنه اللّيل.

- 4 -

جميلٌ، لا بجسده،
بل بجسدها.

-أكثر الفصول إضاءةً

في تاريخ الجسد،
الفصلُ الذي يكتبه اللّيل.

- 5 -

لا ترى حبّها مفرداً
إلاَ إذا رأت جسدها مُثنّى.

-جسده معجمٌ لجسدها.

- 6 -

غموض جسدها هو الذي يُوضحه.
ألهذا يظلّ بدايةً دائمة؟
جَسدها ليلٌ آخرُ لأحلامه.

-هِيَ لهُ الطَبيعة:
مهما انفصل عنها يظلُّ فيها.

- 7 -

لا تعرف الخطيئة:
معصومةٌ عنها بالشّغف والحبّ.

-هنا في هذا المكان، مَرّت.
هناك، في ذلك المكان، لم
تضع قدميها:
لا مَفرّ له، هو العاشق،
مِن أن يُحبّ المكانين.

أثداء الشَوارع تدرّ غزيرةً هذه السنة، غير أنّ الحليبَ دمٌ، وملائكة التَقوى تتعارك فوق رؤوس المارّة. بين أقدامهم، رأيت ملاكاً يستبسِلُ لقتل جارهِ الطَفل. ورأيث ملاكاً يسيل دمه في صندوقٍ من الورق المقوّى. وفي فرنٍ على الزّاوية، كانت تفوح رائحةُ عَصْرٍ لا يخبز غيرَ الجثث وغيرَ الحوريّات.

*

إنّها المدينة. فتّشتُ عن ذاكرتي. كانت غارقةً في عراكٍ مع أسوارٍ من الحديد والتّعاليم، وأبوابٍ يفتحها اللّهاث ويغلقها. منذ تلك اللّحظة، لا أكاد أتفوّه باسم هذه المدينة حتى يكسوني الرّمل.

إنها المدينة. من أخمص القدم إلى أعلى اليافوخ يمتلئ جسدُها بمتاحفِ الشمع. وثمة أجنحةٌ تنقرض، وينابيعُ لا تقدر أن تبوحَ بمائها. هو عاشقها المتشرّد، سيميائيٌ، صديق الأفلاك، ينصب إنبيقه على قارعة التّاريخ ويعالجُ الهواء.

*

افهميني، أيّتها البلاد التي أنتمي إليها، لا أستطيع أن أحضّنَكِ إلا بأجنحتي.

*

للشاعر

(آثَرْنا، اختصاراً، أن نكتفي بالإشارة إلى الطبعتين الأولى، والأخيرة).

1) شعر

قصائد أولى، ط1، دار مجلة شعر، بيروت، 1957؛
طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، 1988.
أوراق في الريح، ط1، دار مجلة شعر، بيروت، 1958؛
طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، 1988.
أغاني مهيار الدمشقي، ط1، دار مجلة شعر، بيروت، 1961؛
طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، 1988.
كتاب التحولات والهجرة في أقاليم النهار والليل،
ط1 المكتبة العصرية، بيروت، 1965؛
طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، 1988.
المسرح والمرايا، ط1، دار الآداب، بيروت، 1968؛
طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، 1988.
وقت بين الرماد والورد، ط1، دار العودة، بيروت، 1970؛
طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، 1980.
هذا هو اسمي، دار الآداب، بيروت، 1980.

مفرد بصيغة الجمع، ط1، دار العودة، بيروت، 1977؛
طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، 1988.
كتاب القصائد الخمس، ط1، دار العودة، بيروت، 1979.
كتاب الحصار، دار الآداب، بيروت 1985.
شهوة تتقدم في خرائط المادة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1987.
احتفاءً بالأشياء الغامضة الواضحة، دار الآداب، بيروت، 1988.
أبجدية ثانية، دار توبقال، الدار البيضاء، 1994.
الكتاب I ، دار الساقي، بيروت، 1995.
الكتاب II ، دار الساقي، بيروت، 1998.
الكتاب III ، دار الساقي، بيروت، 2002.
فهرس لأعمال الريح، دار النهار، بيروت.
أوَّلُ الجَسدِ آخِرُ البَحر ، دار الساقي، بيروت، 2003
تَنبَّأ، أيّها الأعمى ، دار الساقي، بيروت، 2003
تاريخ يتمزَّق في جسد امرأة ، دار الساقي، بيروت، 2007

2) الأعمال الشعرية الكاملة

ديوان أدونيس، ط1، دار العودة، بيروت، 1971؛
ط2، دار العودة، بيروت، 1975؛
ط2، دار العودة، بيروت، 1979.
الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت، 1985؛

الطبعة الخامسة، دار العودة، بيروت، 1988.

الأعمال الشعرية الكاملة، طبعة جديدة، دار المدى، دمشق، 1996.

3) دراسات

مقدمة للشعر العربي، ط1، دار العودة، بيروت، 1971؛

ط5، دار الفكر، بيروت، 1986.

زمن الشعر، ط1، دار العودة، بيروت، 1972؛

ط6 مزيدة ومنقَّحة، دار الساقي، بيروت، 2005

الثابت والمتحوّل، بحث في الاتباع والإبداع عند العرب،

الطبعة الثامنة (طبعة جديدة، مزيدة ومنقحة، في أربعة أجزاء):

1. الأصول،

2. تأصيل الأصول،

3. صدمة الحداثة وسلطة الموروث الديني،

4. صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري.

دار الساقي، 2001.

فاتحة لنهايات القرن، الطبعة الأولى، دار العودة، بيروت، 1980؛

الطبعة الثانية، دار النّهار، بيروت.

سياسة الشعر، دار الآداب، بيروت، 1985.

الشعرية العربية، دار الآداب، بيروت، 1985.

كلام البدايات، دار الآداب، بيروت، 1990.
الصوفية والسوريالية، دار الساقي، بيروت، 1992.
النص القرآني وآفاق الكتابة، دار الآداب، بيروت، 1993.
النظام والكلام، دار الآداب، بيروت، 1993.
ها أنت أيها الوقت، (سيرة شعرية ثقافية)، دار الآداب، بيروت، 1993.
موسيقى الحوت الأزرق ، دار الآداب، بيروت، 2002.
المحيط الأسود ، دار الساقي، بيروت، 2005.

4) مختارات

مختارات من شعر يوسف الخال، دار مجلة شعر، بيروت، 1962.
ديوان الشعر العربي،
الكتاب الأول، المكتبة العصرية، بيروت، 1964.
الكتاب الثاني، المكتبة العصرية، بيروت، 1964.
الكتاب الثالث، المكتبة العصرية، بيروت، 1968.
ديوان الشعر العربي (ثلاثة أجزاء)، طبعة جديدة، دار المدى، دمشق، 1996.
مختارات من شعر السياب، دار الآداب، بيروت، 1967.
مختارات من شعر شوقي (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، 1982.

مختارات من شعر الرصافي (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، 1982.

مختارات من الكواكبي (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، 1982.

مختارات من محمد عبده (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، 1983.

مختارات من محمد رشيد رضا (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، 1983.

مختارات من شعر الزهاوي (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، 1983.

مختارات من الإمام محمد بن عبد الوهاب، دار العلم للملايين، بيروت، 1983.

(الكتب الستة الأخيرة، وُضعت بالتعاون مع خالدة سعيد).

5) ترجمات

حكاية فاسكو، وزارة الإعلام، الكويت، 1972.

السيد بوبل، وزارة الإعلام، الكويت، 1972.

مهاجر بريسبان، وزارة الإعلام، الكويت، 1973.

البنفسج، وزارة الإعلام، الكويت، 1973.

السفر، وزارة الإعلام، الكويت، 1975.

سهرة الأمثال، وزارة الإعلام، الكويت، 1975.

مسرح جورج شحادة، طبعة جديدة، بالعربية والفرنسيّة، دار النهار، بيروت.

الأعمال الشعرية الكاملة لسان جون بيرس،

منارات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1976؛

طبعة جديدة، دار المدى، دمشق.

منفى، وقصائد أخرى، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1978.

مسرح راسين

فيدر ومأساة طيبة أو الشقيقان العدوان، وزارة الإعلام، الكويت، 1979.

الأعمال الشعرية الكاملة لإيف بونفوا، وزارة الثقافة، دمشق، 1986.

كتاب التحولات ، أوفيد، المجمّع الثقافي، أبو ظبي، 2002.

حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

في حديثه عن الحب والموت والزمن والذاكرة تناص بين الفطري والمعرفي، بين العقل والحدس. وتصالح مع الذات التي اتسعت وطناً آخر من المراثي والبحث وطعن اللغة في عزّ نومها.

في هذا الكتاب استحضار لنبوءة الرؤيا في قمة صفائها، وتحوّل نحو تقمّص الأشياء لا محاكاتها، نحو الحضور لا المخاطبة.

كتاب، قصائد، فواتح، تضيء إذ تعتم، لا يتشكل فيها الشاعر إلا ليمّحي، ولايحضر إلا ليغيب على هيئة لا يُقبض عليها.

قيل في الكتاب

«تعود اللغة في وصفها كياناً مكتمل الحضور، مكوّناً أساسياً من مكوّنات الحياة. كأنما الشاعر يضيف إلى تلك العناصر التي يتشكل منها العالم، عنصر اللغة التي تحلّ هنا كمعيار ويحل معها الشعر كالمنفذ الوحيد الممكن». جريدة النهار

نبذة عن المؤلف

أدونيس علي أحمد سعيد، شاعر سوري، ولد في 1930 بقرية قصابين في سوريا. تبنى اسم أدونيس تيمناً بأسطورة أدونيس الفينيقية، الذي خرج به عن تقاليد التسمية العربية منذ عام 1948. أصدر مع يوسف الخال مجلة «شعر» عام 1975. ثم أصدر أدونيس مجلة «مواقف» بين عامي 1969 و1994. درّس في الجامعة اللبنانية، ونال درجة الدكتوراة في الأدب عام 1973 من جامعة القديس يوسف. أستاذ زائر في جامعات ومراكز للبحث في فرنسا وسويسرا والولايات المتحدة وألمانيا. نال عدداً من الجوائز العالمية وألقاب التكريم وتُرجمت أعماله إلى لغات عديدة.

صدر للمؤلف

«ديوان البيت الواحد في الشعر العربي»، «ديوان الشعر العربي»، «رأس اللغة جسم الصحراء»، «زمن الشعر»، «مقدّمة الشعر العربي»، «ورّاق يبيع كتب النجوم»، «أول الجسد آخر البحر»، «الثابت والمتحوّل»، «الصوفية والسوريالية»، الكتاب: أمس المكان الآن (3 أجزاء)، «المحيط الأسود»، «تاريخ يتمزّق في جسد امرأة»، «تنبأ أيها الأعمى»